
اخترنا لك ٦
أضواء على الحبشة

اخترنا لك ...

٦

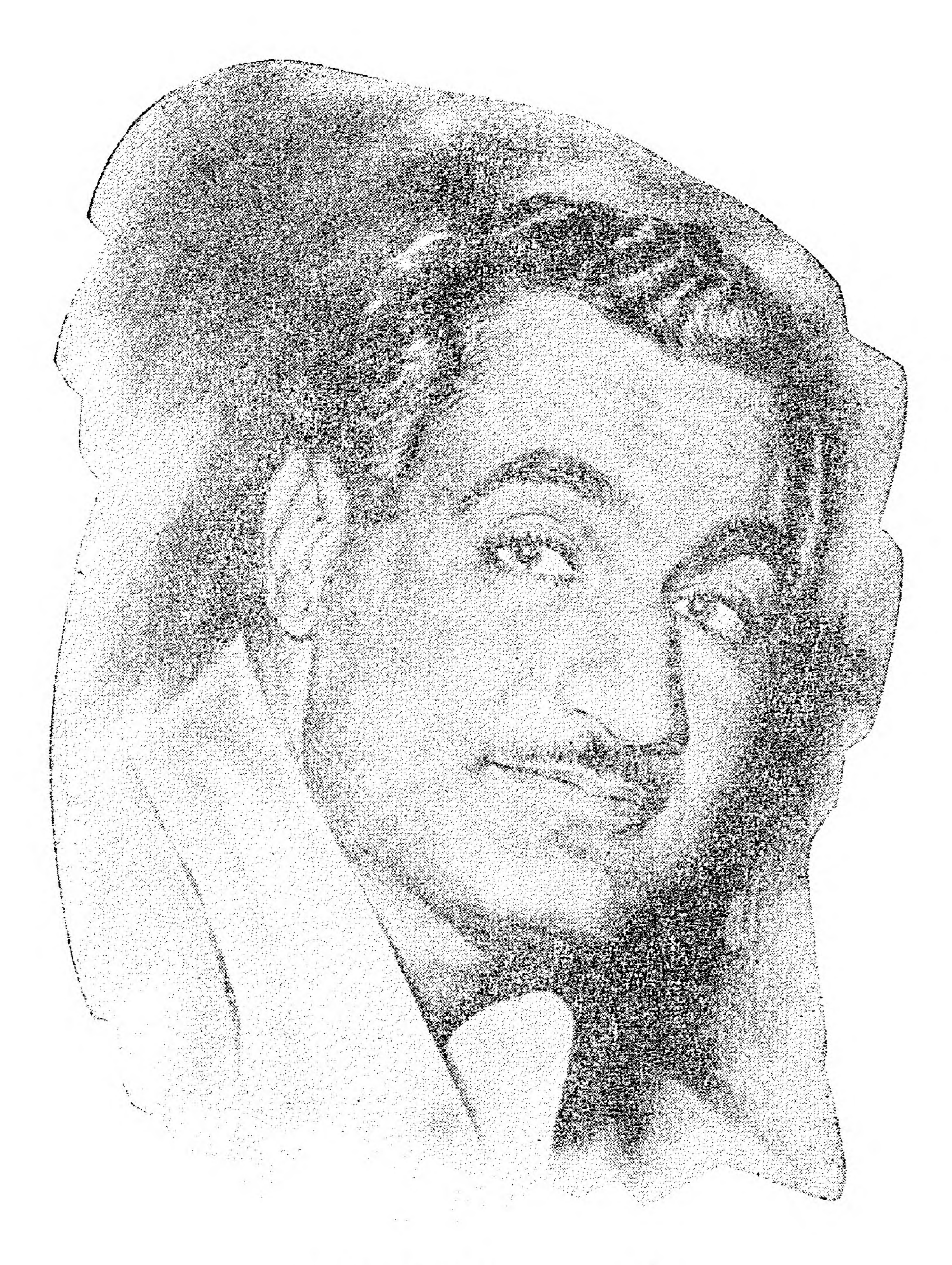
أضواء على الحبشة

اشترك فى إعداد هذا الكتاب :

- أمين شاكر
- سعيد العريان
- مصطفى أمين

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



الرئيس جمال عبد الناصر

أثيوبيا . . . دولة شقيقة !

بقلم

جمال عبد الناصر

إن بيننا وبين الحبشة من علاقات الود الدائم ما لا يكون مثله بين الأخوين الشقيقين . . .

فنحن والحبشة بلدان متجاوران فى قارة ضرب عليها الاستعمار نطاقه، لتكون له دون أهلها كالبقرة الحلوب : تدرُّ له من لبنها ما لا تدر لفصيلها المهزول . . .

ونحن وهى بإزاء ذلك الاستعمار كما يُحكى عن ثيران ثلاثة : أبيض ، وأحمر ، وأسود ، فى أجمة يتربص بها السبع ، فإذا بدا لأسودها أو لأحمرها أن يشترى السلامة لنفسه من ظفر السبع بتسليم صاحبيه أو الإغضاء عما يصيبهما من ظفره ونابه ، فقد أعان على نفسه بهذا التسليم ، وما أقرب أن يصبح ذات يوم وهو يصيح بين مخالب السبع : لقد أُكلت يوم أكل الثور الأبيض !

ونحن إلى ذلك شريكان فى هذا النهر الخالد الذى يُفيض الخير والبركة على شاطئيه من هضبة الحبشة إلى المقرن من أرض السودان إلى

المصب فى البحر المتوسط ؛ فكل ذرة من ذرات ذلك الماء المتدفق فى مجراه بين المنبع والمصب ، تتناجى همساً بأمانى مشتركة تلتقى عندها عواطف المصريين والسودانيين والأحباش جميعاً . . .

ونحن قبل ذلك كله أو بعد ذلك كله ، مؤمنون بالله على دين واحد ومُثل عليا مشتركة ، مسلمونا ومسلمو الحبشة يستحضرون فى كل لمحة من لمحات الفكر ذكرى ذلك اليوم البعيد الذى وطئ فيه المهاجرون الأولون من أصحاب محمد بن عبد الله بساط النجاشى لائذين به من كيد المشركين فى مكة ، فآواهم وأمنّهم وأفاض عليهم من بره ، وأثنى عليهم وعلى نبيهم خيراً ؛ والمسيحيون منا كمسيحيى الحبشة ، على مذهب واحد فى الدين ، يعبدون الله عليه ، ويتداعون إلى نصرته ، وتخفق قلوبهم بمعانيه ، ويقفون فى سبيله صفّاً يتلقّون بركات المطران الذى يرسّمه بطريرك الإسكندرية . . .

هذه الصلات العميقة الجذور فى قلوب المصريين وأهل الحبشة — وليست هى كل ما بيننا وبينهم من صلات — تُشعرنا وتشعرهم جميعاً ، بما بيننا من أواصر وثيقة لا يفصم عروتها الزمان . . .

على أن الاستعمار الباغى لا يريد أن يرى شعبين فى هذا الركن من العالم يعيشان على مودة ووئام . . .

أحس المستعمر الصليبى بهذا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فراح يلتمس أسبابه ليحمل الحبشة باسم الصليب على الانضمام إلى معسكره ؛ فباء بالخيبة والخذلان . . .

وأحسه المستعمر البرتغالى فى القرن الخامس عشر ، فراح يسعى سعيه ليوقع بين المسلمين هنا والمسيحيين هنالك ، لعله أن يجد من وراء ذلك سبيلا لتثبيت قدمه فى أرض الحبشة ليتخذها قاعدة للتوسع والاستغلال فى القارة العذراء ؛ فباء كذلك بالخيبة والخذلان . . .

وأحسه المستعمر البريطانى والفرنسى والإيطالى فى القرن التاسع عشر ، فأخذ باسم المسيحية يحاول محاولة أخرى يقطع بها أوصالا وينشئ علاقات ليفصم علاقات ؛ ولكن حيلته لم تلبث أن انكشفت لكل ذى عينين ، فردّه الأحباش على أعقابه كذلك بالخيبة والخذلان . . .

وأحسه الأمريكى الحديث ، فأخذ ينسج أحبولة أخرى ليوقع فيها فريسة أو فرائس . . . . . .

* * *

هذه المحاولات الاستعمارية المتعاقبة منذ قرون بعيدة للإيقاع بالحبشة وما حولها من بلاد أفريقية ، قد أنشأت فى قلوب الأحباش إحساساً وأنضجت فى عقولهم وعياً وعلّمتهم الحرص والحذر وسوء الظن بكل ما يأتى من وراء البحار ، ولم يكونوا من القوة الحربية بحيث يأمنون غارة سافرة يشنها الاستعمار على بلادهم بعد أن عجز عن أخذهم بالختل والحيلة ، ففرضوا على أنفسهم نوعاً من العزلة تقيهم شر الاستعمار وغوائل المستعمرين ، فانقطعوا بهذه العزلة عن العالم زماناً ، لا يكاد أحد يذكرهم أو يعرف من حقائق الحياة عن بلادهم شيئاً ، واستوى فى الجهل بهم البعداء عنهم من ذوى المطامع الاستعمارية ، والأقارب من ذوى

الجوار والأخوّة العاطفة ؛ فلولا الغارة التى شنها موسلينى على بلادهم منذ عشرين سنة، لظلوا غرباء عن مضطرب الحياة العامة فى العالم الحديث . . .

وصدق من قال : « رب ضارة نافعة » ، فإن هذه الغارة الإيطالية — وقد انتهت إلى ما انتهت إليه واستردت الحبشة حريتها — قد جعلت اسم الحبشة مذكوراً على الألسنة بعد أن طال عليها النسيان . . .

على أن الحبشة — وإن كان اسمها اليوم دائراً على الألسنة — لم يزل كثير من حقائق حياتها وأسباب العلم بها بعيداً عن فكر المفكرين من أهل الشرق ومن أهل الغرب جميعاً ، وعنا نحن جيرانها الأقربين، من غير تقصير منا بحق الجوار والأخوّة . . .

لقد ظللنا حيناً — لظروف خارجة عن إرادتنا — بعيدين عن تتبع تطورات الحياة العامة فى الإمبراطورية الحبشية ، جارتنا وشقيقتنا ؛ لأن السياسة التى كان يفرضها الاستعمار على بلادنا منذ بعيد ، كانت تحول بيننا وبين توكيد أسباب التعارف وتوثيق أواصر الجوار ؛ أما اليوم وقد صارت أمورنا بأيدينا ، فقد وجب علينا أن نتوجه بأبصارنا وقلوبنا إلى ما حولنا ، وأن نلقى « أضواء على الحبشة » تكشف للقراء العرب والأفريقيين عن بعض ما يجهلون من الحقائق العامة عن ذلك القطر الشقيق ، ليكون لهم من العلم بها سبب إلى توثيق علاقات الإخاء والمودة بيننا وبين الشعب الذى تربطنا به أوثق الصلات منذ أبعد أعماق التاريخ . . .

هضبة الحبشة

تقع بلاد الأحباش على هضبة صخرية مترامية الأطراف بين وادى أعالى النيل وسهول الصومال ، حدها الشرقى واضح المعالم ، فهو سلسلة جبال تبدأ من نقطة تبعد نحو ١٦٠ كيلومتراً إلى الجنوب من سواكن ، وتمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر على مسافة ثلاثمئة كيلومتر إلى مصوع ، ثم تنحرف نحو الجنوب حتى تصل إلى منطقة أديس أبابا ، وهذا الحائط الجبلى الذى لا يتجاوز فى الناحية الغربية مستوى علو الهضبة ذاتها ، ينحدر فى الناحية الشرقية إلى عمق يتراوح بين ألفى متر وألفين وخمسمائة متر إلى البحر وإلى سهول دنكالى ؛ أما الحدود الجنوبية من منطقة أديس أبابا فتمتد متعرجة إلى بحيرة رودلف .

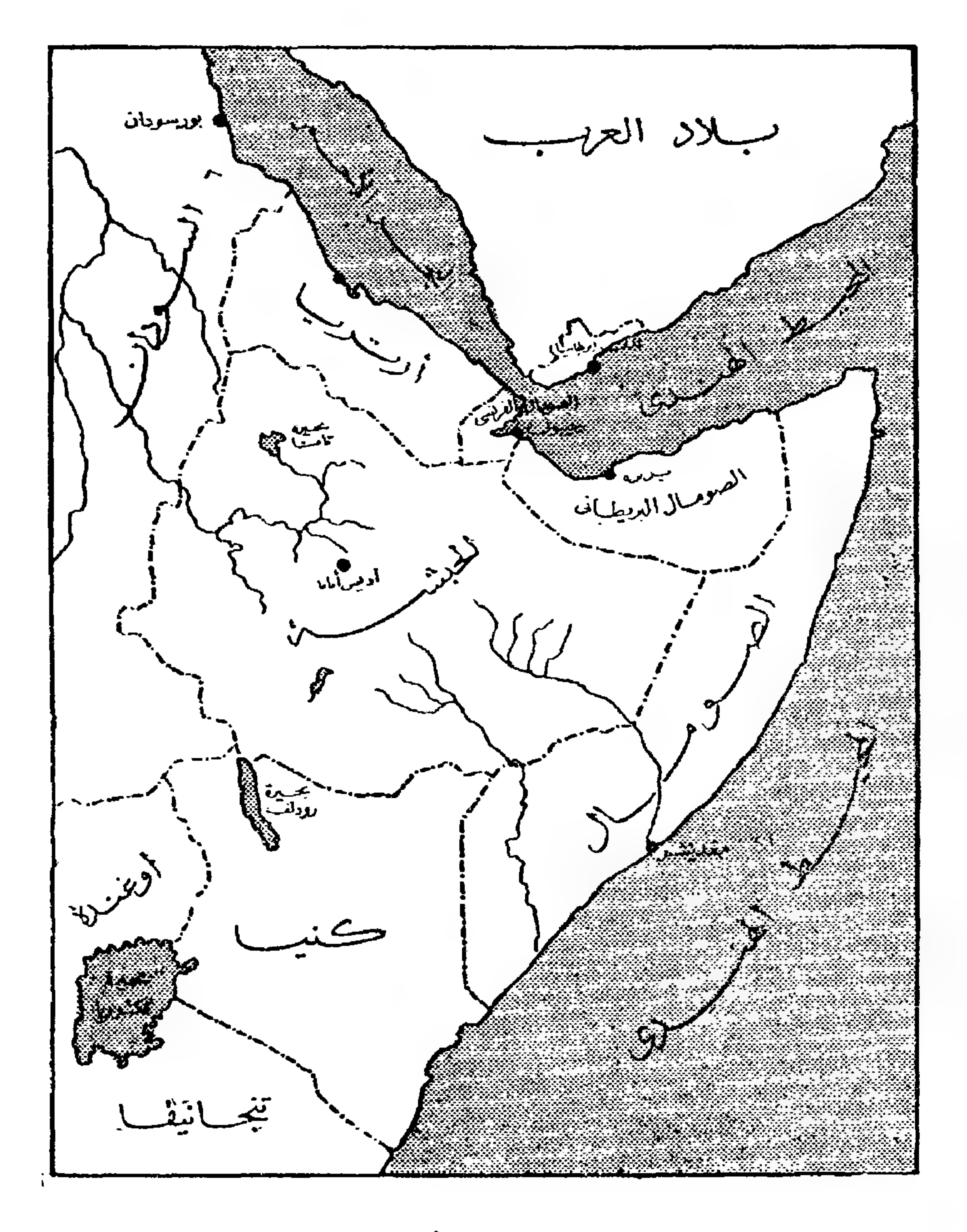
وتحمل هذه الهضبة الصخرية العالية فوق ظهرها كتلة جبلية وعرة ، تشمل فيما تشمل منطقة بلاد (آروسى) ، التى تخرج منها جبال هرر ، وتمتد إلى الشرق نحو خليج عدن ، وتنحدر نحو سهول الصومال التى تعتبر حدودها الشمالية ؛ وتبدو سلسلة الجبال الشرقية على صورة هلال ، ويمس طرفها الشمالى البحر الأحمر ، ويقع طرفها الجنوبى عند بحيرة رودلف ، ثم تنحدر غرباً حيث تنمحى حدودها .

وعلى الرغم من قرب هذه الكتلة الصخرية من خط الاستواء فإن

مناخها معتدل نسبياً إذا قيس بالمناخ الحار الذى يسود منطقة سهول دنكالى التى تجاورها من الشرق ومن الجنوب الشرقى ؛ ولعل هذا هو السبب فى غزارة الأمطار التى تهطل على بلاد الحبشة خلال فصل الصيف ، مما يميز بينها وبين المناطق المجاورة التى قلما تسقط فيها الأمطار ، فيما عدا منطقة أعالى النيل التى لا يقل منسوب سقوط الأمطار عليها عما فى الحبشة ، أما بلاد الدناكل والصومال فقاحلة جرداء ، لا فرق بينها وبين الصحراوات ، كما هو الحال فى بلاد النوبة ، اللهم إلا حيث تلتقى روافد النيل .

وتنحدر الهضبة الحبشية بصفة عامة نحو الغرب فتسير وديانها وأنهارها فى هذا الاتجاه ، وفيما خلا ذلك لا ينحدر نحو الشرق سوى نهر (أواش) الذى ينبع على مقربة من أديس أبابا ويهبط تدريجياً فى اتجاه خليج عدن دون أن يصل إليه ، إذ يتحول إلى شبه مستنقعات يتكاثر عددها غرب جيبوتى . ولا يهبط نحو الجنوب من أنهار الحبشة إلا نهر (أومو) الذى يغذى بمياهه الطامية بحيرة رودلف ، ونهران آخران ينحدران من هضبة (آروسى) إلى الجنوب ولا يصبان فى المحيط الهندى ، بل تضيع مياههما متسربة خلال رمال الصحراء على مقربة من الساحل .

بيد أن الجانب الأكبر من مياه الأمطار الغزيرة التى تهطل على الهضبة الحبشية تنحدر إلى الجانب الشمالى الغربى نحو نهر النيل ، فتغذيه منها ثلاثة روافد كبيرة : نهر العطبرة فى الشمال ، والسوباط فى الجنوب ، وفيما بينهما نهر آباى الذى ينبع من بحيرة تسانا العميقة ،



الحبشة والصومال

وينحدر أولا نحو الجنوب الشرقى ، ثم يدور حول الجبال ويهبط نحو الشمال الغربى حيث يسمى بالنيل الأزرق ؛ وقد حفرت مياه هذا النهر مجرى عميقاً وسط الجبال على صورة غير مألوفة لدرجة أن أصبح هذا الأخدود السحيق حائلا دون المواصلات الطبيعية بين منطقة (جوجام) والمناطق الرئيسية العالية فى الجنوب ، حيث توجد عاصمة البلاد أديس أبابا ، كما لعب هذا النهر دوراً على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ الحبشة .

ولا شك أن فيضان نهر آباى بالأمطار الغزيرة التى تهطل على الهضبة الحبشية ، هو الذى يسبب فيضان النيل السنوى فى مصر ؛ فلا نزاع فى أن حياة بلادنا تعتمد اعتماداً شبه كلى على الحبشة ، وهذا أمر يعرفه الشعبان المصرى والحبشى تمام المعرفة منذ زمن بعيد ، وتحكى الأساطير الحبشية التى يتناقلها الأبناء هنالك عن الآباء أن أياديهم تقبض على عنق مصر ؛ وفى تاريخ بطارقة الإسكندرية ما يؤيد هذا القول ؛ فقد جاء فيه أن مصر أصيبت بمجاعة بسبب عدم فيضان النيل عام ١٠٩٣م ، فأوفد خليفة المسلمين بطريرك الإسكندرية حاملا أفخر الهدايا وأندر التحف إلى ملك الأحباش ، فاستقبله الملك استقبالا كريماً ولبى رجاءه ؛ ويقال إن منسوب النيل قد ارتفع فى هذه الليلة ثلاث أذرع .

وجاء فى أسطورة حبشية أن أحد الملوك المتأخرين من أسرة (زجوى) أراد أن يصب جام غضبه على (الكافرين) المصريين ، فعمد إلى تحويل روافد النيل نحو المحيط الهندى ، وكان ذلك فى منتصف القرن الثالث عشر ؛ ويقال إن ذلك الملك شرع فى تحويل مجرى ثلاثة

روافد ، ثم مات فمات المشروع . . .

وفى رواية أخرى أن الكهنة ثنوه عن عزمه ، بدعوى أن تحويل مجارى الأنهار إلى المحيط الهندى سيخلق دولة إسلامية أخرى فى الصومال لن تلبث أن تثير على شعبه حرباً شعواء وتسلبه عرش أجداده . . .

وفى سنة ١٣٢٥ م اضطهد السلطان الناصر أقباط مصر ، فما كان من ملك الحبشة إلا أن هدد بإنزال المجاعة بشعب مصر وتحويل أراضيها إلى صحراء جرداء إن لم يكف السلطان عن اضطهاد أبناء الطائفة القبطية . . .

وقد تكرر هذا الوعيد مرة أخرى فى أوائل القرن السادس عشر ، حين اختمرت فى رأس الرحالة البرتغالى الكبير (البوكيرك) فكرة تحويل تجارة البندقية التى كانت تمر عبر الأراضى المصرية إلى طريق الكاب الذى كان البرتغاليون يسيطرون عليه وقتذاك ، فبدا له أن يوعز إلى ملك الحبشة بتحويل مجارى روافد النيل الحبشية ، فلا تلبث مصر أن تصبح صحراء قاحلة تنعق البوم فى جنباتها .

وقد بدا لملك الحبشة منذ عهد قريب أن يقيم على نهر آباى سداً ، عند مخرجه من بحيرة تسانا ؛ ولم يكن القصد من ذلك حرمان النيل من رافده الرئيسى ، بل ضبط مياه النهر حتى لا يضيع جانب كبير منها فى البحر أثناء فيضان النيل ، فتستفيد مصر والسودان مما يختزن من مياهه أثناء فترة التحاريق على صورة منتظمة .

ونعود مرة أخرى لوصف طبيعة الأراضى الحبشية ، فنقول إنها تتكون من هضبة مترامية الأطراف يبلغ ارتفاعها نحو ألف متر ، تعلوها هضبة

أخرى يبلغ ارتفاعها نحو ألف وخمسمائة متر ، فى وسطها منخفض بحيرة تسانا التى ينبع منها عدد من الأنهار الكبيرة والصغيرة تشق طريقهافى مجار عميقة بحيث تكاد جوانبها تكون رأسية ، وتعتبر هذه المجارى حصوناً طبيعية ، يكفى للسيطرة عليها والدفاع عنها حفنة من الرجال أمام جيوش ضخمة ؛ وفى أعالى هذه الأخاديد الطبيعية تكثر المراعى والزروع والثمار ، فلا خوف على المدافعين من الجوع ؛ وقد لعبت هذه الأخاديد أدواراً رئيسية فى تاريخ الحبشة ، إذ كان العصاة المتمردون على سلطان الملوك الأحباش يتخذونها أوكاراً يمتنعون فيها فلا تنالهم يد ؛ كما كان الأحباش يتخذونها معاقل يصبون منها نيرانهم على الغزاة الأجانب ؛ أما فى أيام السلم فتصبح هذه الأخاديد أدياراً يتعبد فيها النساك ، حتى إذا جد الجد مرة أخرى انقلبت هذه الأديار وعادت حصوناً تضم بين جوانحها رجالا أشداء يذودون عن حياض الوطن !

وكم أودع ملوك الأحباش فى هذه المعاقل كنوزهم وثرواتهم ، أو ساقوا إليها المناهضين لسلطانهم ؛ ومن بينها معقل قد اتخذه الملوك سجناً يضم جميع الذكور من الأسرة الحاكمة ، فيما عدا أبناء النجاشى الحاكم ؛ ولما كانت المواصلات مقطوعة بين هذا السجن الغريب والعالم الخارجى ، فقدكان النجاشى يجد الأمان والطمأنينة فى سجن الأمراء فيه ، فلا تعكر صفو حياته دسائس ولا تؤرق جفنيه ثورات ولا مؤامرات ، إذ يعيش فيه ذكور الأسرة المالكة ويموتون فلا يسمع بهم أحد ولا يصل إليهم أحد ؛ ومع هذا فلم يكن من الأمور النادرة أن يُستدعى أحد

هؤلاء السجناء من أمراء الأسرة المالكة لاعتلاء العرش إذا لم يكن هناك وارث شرعى من الطبقة الأولى !

وفى هذا البلد الذى تكثر فيه هذه الحصون الطبيعية ، وتتخلل أراضيه سلاسل من الجبال الشاهقات الوعرة وآلاف من الأخاديد السحيقة ، قلما تتحقق الوحدة بين عناصر السكان ؛ وكثيراً ما تعذر على الملوك أن يبسطوا سلطانهم على الولايات المتباعدة التى تفصل فيما بينها هذه الحوائل الطبيعية ، وكم من زعيم رفع راية العصيان وشق عصا الطاعة على مليكه ، واعتصم بمغاور الجبال ، وأعوانه يتحكمون فى رؤوس الأخاديد ، فيصعب على السلطات الحاكمة أن تنالهم وتخضعهم لمشيئة « ملك الملوك » ، وبهذا ظلت العشائر المتمردة على السلطة المركزية محتفظة باستقلالها فترات طويلة ، وانفصمت عرى الوحدة الحبشية فى وقت من الأوقات فقامت فى الحبشة أمارات عدة مستقلة استقلالا ذاتياً ، إلى أن وقعت الطامة الكبرى ، وداست أقدام المحتل الأجنبى أرض الوطن ، فتنبه الوعى القومى ، ونامت الأحقاد ، فالتف الأمراء حول مليكهم !

ولقد عاش الأحباش طويلا منقطعين فى داخل بلادهم عن العالم الخارجى ، ولا عجب فسبيل اتصالهم بمدنية البحر الأبيض المتوسط قاصر على الموانئ الحبشية فى البحر الأحمر ، وتمتد رقعة الحبشة فيما وراء ذلك إلى حدود مصر وصحراء النوبة . . .

ومن تلك الموانى يصدر الأحباش منتجات الأرض الطبيعية ، ومنها الذهب والعاج والفلفل والبهار وبخور الصومال ، والعبيد الذين

يقتنصهم الجلابون من أعالى النيل ، وأخيراً البن الحبشى الشهير الذى تنتجه ولاية (كافا) الواقعة على الهضبة الجنوبية .

أما الواردات فقاصرة على منتجات حوض البحر المتوسط ، فلا ينفذ إلى الحبشة إلا قليل من بصيص نور المدنية الحديثة .

ولقد جاء الفاتحون العرب عن طريق هذه الموانى ، وجاءوا معهم باللغة والكتابة التى لم تزل تستعمل حتى اليوم فى مختلف أنحاء إثيوبيا ، كما تسربت من قبل عن هذا الطريق ، الثقافة اليونانية التى جاءت معها بالمسيحية فأصبحت من يومئذ دين الدولة الرسمى ؛ ومن ذلك الطريق نفسه جاء الفوج الأول من الزوار الغربيين ، من البرتغال ، فحملوا إلى البلاد أصول الحضارة الغربية الحديثة .

بيد أن طريق المواصلات هذا لم يكن مأموناً فى كل الأحيان ، فكثيراً ما كان ينقطع خلال فترات طويلة ، لا سيما منذ ظهور الإسلام ، فظل الأحباش فى عزلة عن العالم الخارجى ، يحيط بهم أجناس من الناس لا يدينون بدينهم ولا يشاركونهم فى عاطفة ؛ فحملهم هذا على الحذر من كل ما هو أجنبى ؛ ثم تأصل الشك والحذر فى النفوس بعد اتصالهم بأبناء دينهم البرتغاليين الذين جاءوهم طامعين ؛ فظلوا بعد ذلك قروناً يرهبون الأجنبى ويقفلون أبوابهم دونه ، حتى صارت هذه القطيعة جزءاً من مواريثهم العقلية والدينية ؛ فلا يكادون يأمنون جانب الغريب ، خشية أن يكون له وراء الأكمة كمين يتربص بهم ؛ فلا عجب أن يظل الأحباش بعيدين عن كل تطور فى الفكر أو فى وسائل المعيشة .

أهل الحبشة

ينتسب الأحباش إلى سبط حام ، وهم فريقان : الذين يعيشون فى المناطق الشمالية الغربية ، ويمتون بصلة القربى إلى قبائل الدناكل والصوماليين التى تضرب فى صحراء النوبة ، وسكان الجنوب ؛ وهؤلاء قد اختلطوا وامتزجت دماؤهم بدماء الزنوج الذين نزحوا إلى داخل البلاد من أعالى النيل ، ومن أجل ذلك يختلفون ، أصلا ولساناً ، عن سكان المناطق الشمالية والوسطى .

وقد حدث فى غابر الزمان — منذ نحو ألف سنة قبل ميلاد المسيح على وجه الترجيح — أن عبرت بعض القبائل العربية اليمنية البحر الأحمر واستقرت على شاطئ الصومال ، ثم تغلغلت إحدى هذه القبائل ، وتدعى بالحبشات ، إلى المنطقة الشمالية من الهضبة ، فأطلق عليها اسم « حابش » ، ومنه اشتقت تسمية الحبشة تحريفاً ؛ ثم قبيلة أخرى تدعى « بنى عجازى » ، ومنها اشتقت تسمية اللغة التى يفخر الأحباش بآدابها القديمة والتى ما زالت تنظم بها التراتيل الدينية فى الكنائس حتى يومنا هذا .

وقد امتزج أفراد هذه القبائل بالسكان الحاميين وفرضوا عليهم عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وأصهروا إليهم ؛ ومن نسلهم كانت نواة الشعب الحبشى ذى الثقافة السامية والأصل الحامى ، ثم تجمعت هذه العشائر وارتبطت فيما بينها بصلات الأرحام ، إلى أن قامت مملكة أكسوم فى الطرف الشمالى الغربى من البلاد ، وكان ذلك فى القرن الأول بعد الميلاد .

وظلت هذه المملكة تمد سلطانها على الجنوب قرابة ستة قرون ، إلى

أن بزغ فجر الإسلام فى شبه جزيرة العرب ، غير أنه لم يصل إلى تلك الأصقاع النائية ، فاعتنق سكان الشمال الديانة المسيحية ، فى حين امتدت فتوح الإسلام إلى المناطق الجنوبية فأسلم سكانها ، وما كاد ينقضى القرن الثانى عشر حتى كانت تعاليم الإسلام قد امتدت وانتشرت فى ولايات أمهرا وجودجام وشوا ، ولم يبق على دين الوثنية إلا سكان الجبال الذين لم تغمرهم المدنية . أما الأمهرية ، لغة الدولة الرسمية فى الوقت الحاضر ، فهى لهجة بعيدة كل البعد عن لغة (العجيز) الأصلية .

وفى القرن الرابع عشر غزا سكان الصومال المسلمون الهضبة الحبشية الوسطى ، ولكن الأهالى ظلوا على لغتهم ودياناتهم ، إلى أن نال الغزو قبائل (الغالا) الوثنية خلال القرن السادس عشر ، فاعتنقت إحداها الإسلام — وهى قبيلة (الأولو) —وظلت القبائل الأخرى على دين أسلافها .

وعلى اختلاف القرون ظلت عاصمة الحبشة تنتقل شيئاً فشيئاً نحو الجنوب ، فاستقرت بعد أكسوم فى مدينة جوندار شمالى بحيرة تسانا ، إلى أن استقرت فى مدينة أديس ابابا خلال القرن الماضى ؛ لتضاؤل نفوذ الملوك وسلطانهم فى الشمال . . .

وغزا المسلمون ميناء مصوع ، كما استولى رجال قبائل بيدجا النوبية على المناطق الساحلية ، وهذا سبب احتفاظ سكان النصف الشمالى من إريتريا الإيطالية (سابقاً) بتقاليدهم الحبشية وديانتهم المسيحية .

أما الإسلام فقد انتشر فى الجنوب والشرق حيث استقرت قبائل الغالا السالفة الذكر .

أصل الحبشة

كما جاء فى الأساطير

ينتمى ملوك إثيوبيا — الذين يأنفون من إطلاق اسم الحبشة على بلادهم — إلى إحدى سلالات الملك سليمان، الذى تروى الأساطير أنه — حين شرع فى إقامة المعبد فى أرض القدس — أوفد إلى أركان الدنيا الأربعة رسلا يأتونه بما يلزم لبناء عرشه ، ويدفع ثمنه ذهباً وفضه .

وقد سمع بذلك تاجر يدعى (تاماران) من موردى قصر الأميرة ماكيدا (بلقيس) الحبشية * ، فشد رحاله وعبر البحر الأحمر حاملا إلى الملك سليمان أحجار (السافير) الزرقاء وخشب الآبنوس الصلب ، ولما حل بأرض سليمان الحكيم ، راعته أبهة الملك وبهرته حكمة الملك ، فرفع إلى الأميرة تقريراً ضافياً عما رأت عيناه وسمعت أذناه ؛ فاستقر رأى الأميرة على أن تزور ملك سليمان ، وأمرت بتجهيز قافلة عظيمة من

(*) تختلف الأسطورة هنا عما ورد فى القرآن الكريم من قصة بلقيس وسليمان ؛ فبلقيس عندنا هى ملكة « سبأ » من بلاد اليمن ، لا أميرة من الحبشة ، وقصة اجتماعها بسليمان مفصلة بوضوح فى سورة « النمل » على غير الوجه الذى تروى به هنا ؛ وإنما أثبتناها علىهذا الوجه المخالف نقلا عن الرواية الحبشية ، لأنها بسبيل مما نروى من التاريخ الأسطورى لأهل الحبشة فيما يعتقدون لا فيما نؤمن به .

الجمال والبغال والحمير ، وسعت إلى القدس حاملة إلى الملك أفخر الهدايا وأثمن الرياش ؛ فلما وصلت إليها استقبلت بحفاوة بالغة وأسبغ عليها سليمان كريم عطفه ، فكانت تجلس إليه لتستمع إلى أحاديثه عن الخالق وعبادته ، وما زال بها حتى كفت عن عبادة الشمس والقمر والكواكب ، واعتنقت اليهودية .

وقضت الأميرة فى ضيافة سليمان ستة أشهر كاملة ، ثم قررت العودة إلى عاصمة مملكتها ؛ فلما سمع سليمان بنيتها على الرحيل ، ناجى ربه قائلا « اللهم اغفر لعبدك . . . هذه امرأة ذات جمال وفتنة ، وقد سعت إلىّ من أقصى بقاع الأرض ، فهلا رزقتنى منها يا رب غلاماً يستوى على العرش من بعدى . ! »

وتقول الأسطورة إن سليمان لم تراوده نفسه إلى بلقيس إلا من أجل هذه الغاية ، ليكون له منها ولد يجلس على عرش الحبشة ، وينشر تعاليم الدين اليهودى فيها ، ويقضى على الوثنية . . .

ثم تمضى الأسطورة فتروى أن سليمان أقام للضيف الكريمة وليمة فاخرة ، وأمر بأن تقدم لها الأطعمة الحرِّيفة المتَّبلة ، لكى تحس بالظمأ الشديد ؛ فلما انتهت المأدبة دعاها سليمان إلى قصره ، فترددت فى أول الأمر ، ثم نزلت على مشيئته بعد أن عاهدها ألا يحاول معها أمراً تأباه ، وعاهدته ألا تمس شيئاً فى قصره إلا بإذن منه . . .

ثم أمر سليمان بإعداد فراشين له ولضيفه فى بهو واسع من أبهاء القصر ؛ فلما انتهت السهرة ، أطفئت الأنوار واستلقى كل منهما على

فراشه ، وتظاهر سليمان بالنوم العميق ؛ وكان حلق الأميرة جافاً من شدة الظمأ ، فقامت من فراشها ومدت يدها إلى وعاء الماء لتروى غلتها ، فإذا سليمان يهب من فراشه صائحاً بها : قد نقضت العهد ومسست شيئاً فى القصر بغير إذن منى !

فغضبت الملكة واحتجت بأن العهد الذى عاهدته لا يشمل الماء ، فأجاب سليمان : إن الماء أغلى شىء على الأرض ، ومنه خلق الله كل شىء حى !

فاستغفرته الأميرة متوسلة إليه أن يأذن لها فى أن تشرب ؛ فقال سليمان : إذن فإنى فى حلٍّ من عهدى كذلك !

وهكذا خضعت بلقيس لإرادة سليمان فنال منها مناله . . .

ثم رأى سليمان فى منامه كأن الشمس تهبط على أرض يهوذا ، وكأن قوماً من رعيته يحاولون الانقضاض عليها وتحطيمها ، فترتفع الشمس إلى السماء ، ثم تهبط بعيداً بعيداً ، على أرض روما والحبشة . . .

وفى صباح اليوم التالى قدم سليمان إلى بلقيس خاتماً وطلب إليها ، إذا ما أنجبت غلاماً ، أن تعطيه إياه وتبعث إليه به ، لأنه أبوه !

ويروى بعد ذلك أن بلقيس عادت إلى الحبشة ، ثم ولدت غلاماً سمته منليك ، فلما بلغ مبلغ الرجال أعطته أمه خاتم سليمان ، وزودته بفاخر الهدايا ، وجهزت له قافلة كبيرة تصحبه ، ويتولى قيادتها التاجر تاماران إلى القدس ، وطلبت إلى تاماران أن يرجو سليمان تتويج ابنه ملكاً على الحبشة ، ويصدر قانوناً بأن يظل عرش الحبشة وقفاً على سلالة

منليك من الذكور دون الإناث ، كما كان العهد من قبل . . .

فلما وصل الركب إلى غزة استقبل اليهود ابن مليكهم بالحفاوة والهتافات العالية ، وسار فى ركابه عدد كبير منهم إلى القدس ، حيث استقبله سليمان الحكيم وأسبغ عليه عطفه وأكرم وفادته ؛ فلما قدم له منليك الخاتم دليلا على بنوته ، قال سليمان إنه ليس فى حاجة إلى بينة لإثبات نسبه إليه ، لأن قسمات وجهه وتكوين جسده تنم عن حقيقة أصله . . .

ورفع تاماران رسالة الأميرة إلى سليمان فتلاها ، ولكنه أخذ يحاول إقناع ولده البكر بأن يكون ولياً لعهده ، وحاكماً على شعب إسرائيل من بعده ؛ ولكن منليك أبى محتجاً بأوامر أمه ، فلم يسع سليمان إلا الاعتراف به ملكاً على الأحباش ، وأطلق عليه اسم داود ، كما أصدر قانوناً بأن يكون عرش إثيوبيا وقفاً على الذكور من أسرته دون الإناث . . .

ثم أسرّ كبير الكهنة إلى داود أن بركة الإله ستعم بلاده إذا آمن بدين يهوذا ، وأن اللعنة لابد أن تحل عليه إذا عصى تعاليم هذا الدين . . . .

وجمع سليمان وزراءه ومستشاريه فخطب فيهم قائلا إنه نصب ولده البكر داود ملكاً على الحبشة ، وعلى كل واحد منهم أن يوفد أول ولد يولد له إلى تلك البلاد ، ليكونوا عماداً لملكه ، ومستشارين مخلصين له ، يتولون تصريف شئون المملكة إلى جانبه . . .

ولما حان وقت رحيل منليك إلى بلاده ، أبدى أولاد النبلاء من شعب سليمان أسفهم على رحيلهم من أرض آبائهم ، وأخذوا يلعنون ذلك

اليوم الذى أصدر فيه سليمان هذا القرار المجحف .

ولكن آزارياس ابن رئيس الكهنة دبر فى نفسه أمراً ما لبث أن أفضى به إلى بقية أولاد النبلاء فأقروه عليه ، وخلاصته أن يلجأوا إلى نجار ماهر ، ليبنى لهم هيكلا من الخشب شبيهاً بهيكل سليمان ، ويستبدلوه به ، ثم يحملوه معهم إلى الحبشة !

وفى ليلة دامسة الظلام ، قاموا بتنفيذ مشروعهم وحملوا الهيكل معهم وقد أسدلوا عليه غطاء يخفيه ، ثم جدوا فى المسير ، فقطعوا صحراء سينا فى أيام معدودات ، حتى بلغوا الأراضى المصرية ، ثم انحدروا منها جنوباً إلى الحبشة . . .

وفى هذه الأثناء ، أفضى أولاد النبلاء بالسر إلى منليك (داود) ففرح فرحاً عظيماً وأقبل عليهم يهنئهم على ما دبروا . . .

أما سليمان الحكيم فقد أحس بعد رحيل ولده بانقباض شديد ، عزاه إلى فراق ولده ؛ ولكن كبير الكهنة لم يلبث أن اكتشف السر ، فراح يلطم خديه ويمزق صدره ؛ ولما عرف سليمان بالحقيقة ، أمر بإعداد جيش للحاق باللصوص الذين استولوا على عرشه خلسة ودنسوا الهيكل بفعلتهم الشنعاء !

وبلغ الجيش أرض مصر ، فعلم أن داود وحاشيته قد رحلوا منذ نحو شهر ، ولم يبق لهم أمل فى استرداد العرش ؛ فعاد سليمان إلى بلاده مهموماً كاسف البال ، وشاور كبير الكهنة ، فاستقر رأيهما على كتمان السر ، حتى لا يعلم اليهود أن عرش سليمان قد انتقل عن أرض يهوذا . . .

وبعد عدة سنين أوفد بلتازار ملك روما رسولا من لدنه إلى سليمان ، يطلب إليه أن يزوج أحد أبنائه لابنته ، ليعتلى عرش روما من بعده ؛ وكان سليمان قد ولد له بعد داود ولدان : هما: أدراميس، وروبوم ؛ فأرسل سليمان (أدراميس) إلى روما ، وجعل روبوم ولياً لعهده ؛ وبذلك حكم (روبوم) أرض يهوذا ، وداود الأصقاع الجنوبية ، وأدراميس جنوب أوربا وشرقها ؛ وتحققت النبوءة القائلة بأن أولاد سليمان سيحكمون بلاد العالم المتحضر جميعاً ، ثم لا يلبث اليهود طويلا بعد ذلك فيتفرقون فى أنحاء الأرض . . .

وقد حاد ملوك روما من سلالة سليمان عن دينهم بعد المسيح ، كما تم تدمير الهيكل فى أرض يهوذا ، فلم يبق من سلالة سليمان من يتبع دينه وتعاليمه إلا سبط منليك (داود) . . .

* * *

وغنى عن البيان أن هذه الأسطورة لا تستند إلى دعامة من التاريخ ؛ وحسبنا دليلا على ذلك أن ملوك أكسوم ظلوا على الوثنية حتى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وتدل آثارهم على أنهم كانوا يتفاخرون بنسبتهم إلى إله الحرب « ماحرم » .

ويبدو أن البواعث التى حفزت إلى نشر هذه الأسطورة ترجع إلى رغبة الأحباش فى إرجاع نسبهم إلى أصول عريقة ؛ وفى التاريخ القديم والحديث نظائر لمثل هذا الزعم ؛ فحين اتصل الرومان القدماء بالحضارة اليونانية ، لم يرضهم أن يكونوا مغمورى النسب ، فراحوا ينقبون فى بطون



كيف انتقل هيكل داود إلى الحبشة ؟

التاريخ حتى عثروا على أسطورة تزعم أن أحد سكان طروادة المدعو (إينيه) فر بعد سقوطها وعبر البحر إلى إيطاليا ؛ فزعم بناة روما وسادتها أنهم حفدته !

وعلى هذا المنوال نسج الأحباش ، فإنهم بعد أن اتصلوا بمدنية الشرق المسيحية، رأوا أن يختلقوا لأنفسهم أصلا تاريخياً، فبنوا على قصة من قصص التوراة هذه الأسطورة الملفقة ليحققوا لأنفسهم ما أرادوا من التفاخر بماض مزعوم ؛ وقد يكون للأحباش بعض العذر من هذا إذا ما علمنا أن نفراً من الإنجليز يروجون أسطورة أخرى مؤداها أن السكسون جنس من ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وأن الإمبراطورية البريطانية هي أرض الميعاد . . .

ولعل أول ما نبه الأحباش إلى اختراع هذه الأسطورة ، هو ما جاء فى الكتب المقدسة من أن ملكة سبأ قصدت إلى مملكة سليمان من بلاد سحيقة لتنهل من حكمته — وقد أشارت آياتٌ من القرآن الكريم إلى شيء من هذا المعنى — فلم يلبث الأحباش أن لقفوا هذه القصة ونسجوا حولها الأساطير . . .

وقد قيل إن تاريخ مُلك بلقيس يرجع إلى القرن الأول بعد الميلاد، حينما تولى يوسف عليه السلام خزائن فرعون فى أرض مصر ؛ فلماذا لا يزعم الأحباش أن بلقيس هى ملكة أثيوبيا التى أنجب منها سليمان ابنه داود ؟ وإذا كان داود هو ابن سليمان البكر ، فلابد أن يكون الأحباش أعرق أصلا وأكرم محتداً من النبلاء اليهود ومن سلالات أولاد سليمان

جميعاً . . . . . .

أما لماذا اعتنقوا المسيحية ولم يبقوا على دين سليمان ، فإنهم يقولون إن شقيق ملكهم الأول فى أثيوبيا ، كان ملكاً على روما ، فليسوا هم وحدهم الحفظة على تراث سليمان ، وما دام ملك روما قد اعتنق المسيحية ، فمن حقهم أن يعتنقوها مثله !

وقد يكون من البواعث على ترويج هذه الأسطورة ، رغبة الأسرة الحاكمة فى إقناع الشعب الإثيوبى بحقها الإلهى ، ما دام أصلها يرجع إلى نبى الله سليمان ، وما دام سليمان هو الذى توج منليك ملكاً على الحبشة ، فإن كل ثورة على أحد الحاكمين من سلالته حرام ، بل كفر بنعمة الله ؛ ثم إنهم بهذه الأسطورة — فوق ذلك كله — خئولة المسيح عليه السلام ، وحسبهم ذلك شرفاً فى الدين والدنيا جميعاً !

هذا ويزعم المؤرخ العربى « أبو صالح » الذى وضع فى سنة ١٢٢٥ بعد الميلاد كتاباً عن تاريخ الكنائس والأديار فى مصر ، أن لدى الأحباش حقاً عرش سليمان الذى يحتوى على لوحين من الحجر منقوش عليهما بعض ما فرض الله من شرائع الدين اليهودى . . .

ويضيف المؤرخ إلى ذلك أن ملوك الحبشة لعهده ليسوا من سلالة داود ، وإنما يرجع أصلهم إلى موسى بن عمران عليه السلام ؛ وهو دليل على أن الأسرة الحاكمة فى ذلك العهد (أسرة زجوى ، التى طرد آخر ملوكها سنة ١٢٧٠ م) — قد سلبت الملك من أصحابه الشرعيين ، فلا عجب أن تنتحل لنفسها أصلا يرجع إلى سيدنا موسى ، لتكون بهذا

النسب المنحول أسبق وأعرق من أسلافها الذين ينتمون إلى سليمان الحكيم ..

وهذا الزعم لا يؤيده دليل ثابت من التاريخ ، ولعله قائم على ما جاء فى التوراة من أن موسى اتخذ لنفسه حليلة حبشية ؛ وهو سلاح استخدمته الأسرة الحاكمة فى ذلك الوقت لتشهره فى وجه أنصار الأسرة المخلوعة !

ومجمل القول أن هذه الأسطورة نشأت فى القرن السادس الميلادى ، عقب ظهور الإسلام ؛ وكانت مملكة الأحباش يومذاك فى عزلة تامة عن العالم الخارجى المسيحى ؛ ثم ازدادت هذه الأسطورة تأصلا فى النفوس ورسوخاً فى العقول على مر الأيام ، إلى أن تزعزع مركز الأسرة الحاكمة التى غصبت العرش فى منتصف القرن الحادى عشر واستولت على الحكم قرناً وثلث قرن . . .

ولعل هذه الأسطورة أدرجت فى كتب التاريخ التى وضعها بطارقة الإسكندرية ، زعماء الحبشة الروحانيون ، الذين كانوا يناوئون تلك الأسرة الغاصبة ويؤيدون الأسرة المغلوبة على أمرها .

وفى مستهل القرن السادس عشر ، كان المرجع التاريخى الجدى ، وهو من وضع أحد الأوربيين ، يقرر للعالم أن عرش سليمان يزين كتدرائية أكسوم ، وأن الأسرة الملكية من سلالة سليمان الحكيم ، وطبقة النبلاء من أحفاد رجال البلاط السليمانى ، ورجال الدين من سلالة كبير الكهنة فى القدس ؛ وقد آمن الناس بهذه الخرافة ردحاً من الزمن ، وآية ذلك أن النسخة الملكية من كتاب (كيبرا ناجاست) الذى يحتوى على الدوحة الملكية الحبشية ، سليلة سليمان ، كانت قد اختفت فى

ظروف مريبة من كتدرائية أكسوم ، واتضح بعد ذلك أن لورد نابيير الإنجليزى قد سرقها وحملها إلى بلاده ، فلما اعتلى العرش حنا الرابع ، خليفة تيودور ، كتب إلى لورد جرانفيل يستحلفه أن يرد إليه النسخة ، لأن رعاياه لا يدينون له بالولاء إلا إذا عادت لحيازته ؛ فرق له قلب جرانفيل ، وتوسط لدى أمناء المتحف البريطانى فردوا إلى النجاشى كتابه المقدس !

ولا جدال فى أن هذه الأسطورة المتأصلة فى نفوس الأحباش ، والتى تزعم أنهم شعب الله المختار ، وأصحاب عرش سليمان ، وحملة الوصايا الإلهية التى نزلت على سليمان الحكيم — كانت أكبر معين لهؤلاء الأحباش فى حروبهم ضد المسلمين تارة وضد الوثنيين تارة أخرى .

وقد ظلت الأسرة التى تزعم الانتماء إلى سليمان ، تحكم البلاد من سنة ١٢٧٠ إلى سنة ١٨٥٥ ، وإن كان ملوكها خلال القرن الأخير ملوكاً بلا سلطة ، على أنه من بواعث فخر الأسرة المالكة فى كل بلد ، أن تتوارث العرش ستة قرون متصلة .

أجل ، لقد قامت حروب واشتعلت ثورات فى الحبشة ، غير أن الشعب ظل على ولاء دائم للملوك الذين يحكمونه طوعاً لإرادة الله !

حقيقة الأصل فى التاريخ

كان أول الزوار الأوربيين الذين نزلوا فى الأراضى الحبشية ، بعض أمراء البحر اليونانيين الذين أوفدهم بطليموس الثانى وبطليموس الثالث إلى هذا الأصقاع لاكتشاف مجاهل الساحل الغربى للبحر الأحمر خلال القرن الثالث قبل الميلاد ؛ وكان من أهداف هذه البعوث إنشاء علاقات تجارية مع سكان البلاد ، واقتناص الفيلة الأفريقية التى كان البطالسة يقومون بترويضها وتدريبها لمواجهة الفيلة الهندية فى ساحات الحرب ؛ ولهذا الغرض أقام وكلاء البطالسة على طول الساحل عدداً من المحطات التجارية والاستراحات التى كانت تستخدم مراكز تبدأ منها الحملات التى تتغلغل إلى باطن الغابات وسفوح الجبال ، حيث تكثر الفيلة المطلوبة لملوك مصر ، وكان من بين هذه المحطات واحدة أطلق عليها اسم بيرينيس التى كانت تحتل موقع مدينة أدوليس الساحلية ، حيث يقع ميناء أكسوم الحالى فى أغلب الظن .

على أن المحطات المذكورة لم تلبث أن هجرها الذين أنشأوها بعد أن تقلص سلطان البطالسة ، ولكن العلاقات التجارية مع ذلك لم تنقطع بين المصريين والأحباش .

وقد ورد ذكر مملكة الأحباش لأول مرة فى كتاب « جولة فى بحر

إريتريا » الذى يتضمن مشاهدات لمؤلفه فى رحلات قام بها إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى خلال السنوات الأخيرة من القرن الأول الميلادى ، وجاء فى هذا الكتاب عند ذكر ميناء أدوليس : أن عاصمة ملوك أكسوم تقع على مسيرة ثمانية أيام فى داخل البلاد ، حيث يجلب العاج الذى يشحن على ظهور الدواب إلى الميناء المذكور ، ومنه يصدر بحراً إلى الإمبراطورية الرومانية . . .

ثم يضيف المؤلف : إن سيد هذه الأصقاع يدعى « زوسكالس » وقد اتصف بالشح والجشع ، ولكنه نبيل ، نهل من ثقافة اليونان قسطاً وفيراً . . .

وعلى ذلك يعتبر زوسكالس هذا فى نظر التاريخ أول ملك للحبشة ، ومنذ عهده ظلت الحضارة تساير اتساع حركة التجارة بين بلاده والأقطار الخارجية . .

ومن بين المراجع القديمة التى يعتد بقيمتها التاريخية إلى حدما، سفر كبير وضعه أحد تجار الإسكندرية عن رحلاته فى البحر الأحمر ، وذكر فيه أنه نزل ذات مرة فى ميناء أدوليس ، فأوفد إليه ملك أكسوم حاكم الولاية ليرجوه أن ينقل إلى اليونانية لوحتين ، ذكر الكاتب أنه احتفظ بإحداهما ، وورد فيهما وصف غزوات ذلك الملك ، وإخضاعه لقبائل « بيدجا » الرحل التى كانت تضرب وقتذاك فى الصحراء الواقعة خلف ميناء سواكن ولأهل تنجانيقا التى تقع على الحدود المصرية الجنوبية ؛ كما سجل الملك أنه عبر البحر وغزا الأراضى العربية (أراضى

اليمن على وجه الترجيح) وفرض على ملوكها وزعماء عشائرها الجزية وتأمين الطرق التجارية ، البرية والبحرية على السواء . وجاء فى الختام أنه أول ملك حبشى كتب له التوفيق فى غزواته بتأييد من الإله (ما حرم) الذى أنجبه وأنجب آباءه من قبله ؛ فلما ساد السلام وخضعت له هذه الشعوب ، عاد إلى أدوليس وقدم القرابين لإلهه المعظم ، ليلحظ بعين رعايته أولئك الذين يجوبون باسمه البحار ويخضعون الشعوب لسلطانه !

فإذا جاز لنا أن ندخل فى حسابنا عنصر التفاخر والمباهاة ، فلا سبيل لنا إلا الاعتراف بأن هذا الغازى المظفر كان من غير شك هو مؤسس الإمبراطورية الحبشية ، وأنه حكم خلال القرن الثالث الميلادى ، وكان اسمه « أفيلاس » ، وما زالت بعض العملة المضروبة باسمه متداولة حتى الآن بين أيدى الهواة ، أو محفوظة بين جدران المتاحف .

أما خلفه الذى استوى على عرش مملكة أكسوم ، ولدينا عنه بعض المعلومات ، فكان يدعى (آيزاناس) بن (إيلاأميدا) ، وقد حكم خلال الربع الثانى من القرن الرابع ، وخلد أعماله وفتوحه فى عدة لوحات ، بعضها باليونانية ، وبعضها بلغة اليمن ، وهى تدل على أن الحبشة كان لها ثقافة خاصة إلى جانب ثقافة الإغريق المستوردة .

وكان الملك يصدر مراسيمه باسم « ملك أكسوم ، حمير ، ريدان سبأ ، صالحين ، سيامو ، بيدجا ، كاسو ، ملك الملوك بن ماحرم المظفر الذى لم يعرف الهزيمة قط »

فورود ذكر سبأ وحمير يدل على أن إمبراطورية الحبشة شملت

منذ فتوح «أفيلاس» أراضى اليمن ، بيد أنه ليس من المؤكد أن (آيزاناس) قد حكم الجزء الجنوبى الغربى من شبه جزيرة العرب ، إذ اقتصرت فتوحه على الأراضى الأفريقية ؛ فقد جاء فى اللوحات المذكورة آنفاً أن شقيقى الملك ، الأمير سازاناس والأمير حاديفان ، هما اللذان قاما بإخماد ثورة قبائل بيدجا على سلطان الإمبراطور ، وفيما عدا ذلك كانت الحروب قاصرة فى عهده على إخضاع شعوب تكاد تكون غير معروفة لدينا ، فيما عدا أهالى النوبة الذين شنوا الغارات على جيرانهم ثم عبروا ضفة النيل فاعتدوا على أراضى الإمبراطور ؛ ولما أوفد إليهم رسله ليوقفهم عند حدهم ويكبح جماح عدوانهم بالحسنى ، أهانوهم وسلبوهم أموالهم ، فلما سمع الإمبراطور بذلك جرد عليهم حملة كبيرة ، فراحت تنكل بهم وتطاردهم حتى إذا بلغوا نهر سيدا (النيل الأزرق) ازداد ضغط الأحباش عليهم ، فمات كثير منهم غرقاً ، وظل قائد الحملة يلاحقهم إلى أن دخل أراضيهم فأحرق مدنهم وديارهم ، ونهب محاصيلهم من الحبوب والقطن ؛ وقد ثبت علمياً أن القطن يزرع فى السودان منذ آلاف السنين .

ثم واصل الجيش المسير على ضفة النيل الأزرق حتى بلغ أراضى النوبيين الحمر ، فأخضعهم لسلطان الإمبراطور .

وقصارى القول أن هذه اللوحات تعتبر أول وثائق ذات قيمة تاريخية ثابتة لتاريخ الحبشة فى هذا العصر . . .

المسيحية فى الحبشة

ذكر روفان فى كتابه (التبشير فى الحبشة) أن فيلسوفاً رومانياً كان فى طريق عودته من الهند مع غلامين صغيرين من أقاربه ، فلما وصلت به السفينة قرب الساحل الحبشى رست لتتزود بالماء العذب ؛ وكانت المعاهدة قد فسخت بين الإمبراطورية الرومانية وإمبراطور الحبشة ، ومن عادة الأحباش فى مثل هذه الحالة ، أن يعتبروا الرعايا الرومان أعداء لمليكهم ، فيستحلوا دمهم ، فما كادت السفينة تلقى مراسيها فى الميناء حتى انقض الأحباش على ركابها الرومان يعملون السيوف والمدى فى رقابهم . . .

وكان الطفلان فى أثناء هذه المجزرة قابعين فى أحد أركان السفينة يرتعدان فرقاً من هول ما ترى أعينهما ؛ فلما سيقا إلى قصر الإمبراطور أخذته الشفقة بهما ، فاتخذ من أحدهما ساقياً ، واستشف فى الآخر أمارات الذكاء فعهد به إلى مرب خاص ، ثم اتخذه فيما بعد أميناً لخزائنه ، وأسبغ عليه وعلى زميله عطفه وحنانه ؛ ولما مات الملك ، ترك وراءه أرملة حزينة وطفلا رضيعاً ، فطلبت الإمبراطورة الأم إلى الغريبين أن يشاركاها فى تصريف شئون المملكة حتى يبلغ ابنها سن الرشد ، فنزلا على إرادتها الملكية ، وتولى أكبرهما (فرومانس) زمام الحكم، فى

إخلاص وولاء ، وكان التجار الرومان يفدون فى ذلك الوقت إلى الحبشة لمبادلة السكان سلعاً بسلع ، فيتصل بهم رئيس الحكومة ويكرم وفادتهم ويعمل على تيسير أعمالهم ؛ فسمع من حديثهم أن هناك رسولا يدعو إلى المحبة وعبادة إله واحد ، فاشتد تحمسه لدعوته ، وترك للرومان حرية العبادة فى أى مكان يقيمون فيه كنائسهم ، وأباحهم الأرض بلا ثمن ، ومنحهم كل تكريم وحفاوة ؛ وبذلك نبتت بذرة المسيحية فى أرض الحبشة . . .

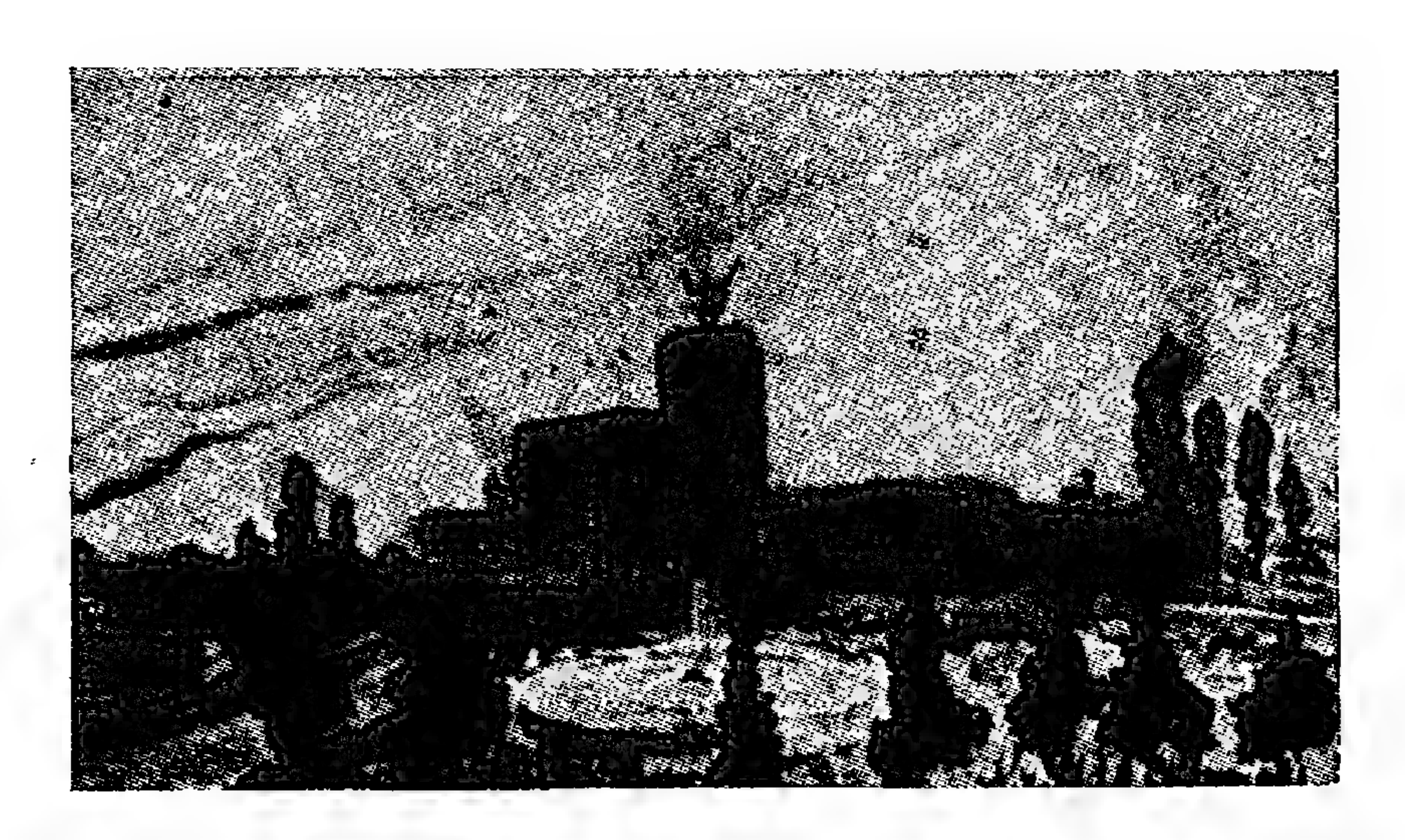
وانقضت الأعوام ، وانتهت فترة الوصاية ، فأعرب فرومانس وقريبه للإمبراطورة الأم والإمبراطور الشاب عن رغبتهما فى الرحيل إلى أرض أبويهما فى روما ، ولم يثنهما إلحاح المليك عليهما بالبقاء ، بل آثرا الرحيل . . .

وعرج فرومانس على الإسكندرية ، حيث اجتمع بكبير أساقفتها ، وطلب إليه أن يوفد إلى « بلاد الكفار » عدداً من رجاله الأكفاء المخلصين لبث الدعوة المسيحية ونشر تعاليمها بين مريديها ؛ فما كان من كبير الأساقفه إلا أن ألحف عليه فى الرجاء ليعود أدراجه ويتولى بنفسه مهمة نشر المسيحية فى الحبشة ، ثم كرسه مطراناً على أكسوم وتوابعها ، فما لبث أن حول الإمبراطور عن دين أسلافه إلى دين المسيح . . .

هكذا شرح روفان فى كتابه كيفية دخول الدين الجديد إلى الأراضى الحبشية ، ويؤيده الإتيوبيون فيما يذهب إليه ، مع فارق دقيق ، هو أنهم نسبوا لأنفسهم قصة « فيليب والخصى » الشهيرة ، كما زعموا أن كانداس كانت ملكة على (مروى) بالنوبة لا على الحبشة . وهذا

محض افتراء ، فلم يرد فى أى سفر تاريخى أنها اعتنقت المسيحية ، فقد ظل أهل النوبة على دين الوثنية بعد اعتناق الأحباش للمسيحية نحو ثلاثة قرون ، فكيف يقال إن تابعها الخصى هو الذى قام بتنصير الأحباش ، ولو كانت هذه الدعوى حقيقية فمن الذى كرس الخصى وألبسه مسوح الكاهن ؟

يقول الأحباش رداً على ذلك إن الخصى هو الذى هداهم إلى تعاليم الأرثوذكسية ، ولما عاد فرومانس الذى سمى فيما بعد بالأب سلامه ، تولى تعميد من اعتنق المسيحية . . .



مبنى جمعية الشبان المسيحية فى أديس أبابا

الحضارة البدائية

ليس لدينا عن الحضارة الحبشية البدائية إلا النذراليسير من المعلومات ، فقد قدم إلينا كوزماس صورة حائلة اللون عن علاقات الأحباش التجارية بأهالى قلب أفريقيا خلال القرن الرابع الميلادى ، وفى هذا الصدد يقول المؤرخ : إن ملك أكسوم كان يمنح سكان المناطق الواقعة حول بحيرة تسانا (الآجاو) حيث يستخرج الذهب من باطن الأرض ، امتيازات خاصة عن طريق حاكم الولاية .

وكانت تخرج من عاصمة المملكة قافلة كبيرة تحمل المواشى وقضبان الحديد وكتل الملح ، وتجد فى السير حتى تصل إلى حدود أراضى الآجاو ، فتضرب خيامها ، وتنثر ما لديها من خيرات حول المعسكر ، فيفد الأهالى ويختار كل منهم حاجته من السلع ثم يضع فوقها قطعة من الذهب بحجم حبة الفول ، وينسحب ؛ فإذا رضى البائع أخذ قطعة الذهب ونال المشترى بغيته ؛ وإن لم يرضه الثمن ، ترك الحبة فوق البضاعة ، فإما أن يضيف إليها المشترى حبة أخرى وإما أن يستردها فيقبل على شرائها شخص آخر !

وتستمر هذه المساومة عادة نحو خمسة أيام ، ثم تعود القافلة أدراجها ، وتقطع فى طريق الذهاب والإياب ما لا يقل عن ستة أشهر ،

ويتزود رجال البعثة بمختلف أنواع الأسلحة لدفع غارات قطاع الطرق واللصوص الذين يعتصمون بشعاب الجبال .

والمفهوم أن القافلة كانت تسير فى طريق الذهاب سيراً وئيداً ، بسبب ما يصحبها من قطعان الماشية ، أما فى طريق العودة فتجد فى السير حتى لا تفاجئها السيول .

كذا نستطيع أن نقدم صورة ، غير واضحة المعالم ، لما كان عليه البلاط الحبشى خلال القرن الرابع ، فقد أوفد إمبراطور الرومان (جوستينيان) سفيراً يدعى جوليان إلى عاهل الحبشة ، للاتفاق على مرور البضائع التى كان أباطرة الرومان يجلبونها من الهند عن طريق بلاد الفرس ؛ ولما كانت الحرب مستعرة بين الإمبراطورية الرومانية ودولة فارس ، فقد خشى الإمبراطور أن تقع بضاعته المستوردة غنيمة فى أيدى الأعداء ، فهداه التكفير إلى الاستعانة بعاهل الحبشة المسيحى الصديق على مرور وارداته عبر أراضيه .

وإذا كان هذا المشروع قد أخفق ؛ فقد كتب السفير جوليان وصفاً رائعاً مسهباً للبلاط الحبشى ، ولكن هذا الوصف لم يبق منه على مر الأيام إلا النذر القليل . . .

فقد ذكر أن ملك الحبشة كان شبه عار ، ينتطق بقطعة من القماش موشاة بالذهب تخفى عورته وتتدلى على ظهره ، وفى أعلى بطنه قطع مستطيلة من الحرير المحلى باللآلىء ، ويضع حول معصميه أساور من الذهب ، أما غطاء رأسه فكان من قماش التيل ، تتدلى على جانبيه

أربع ذلاذل ذهبية ، وحول عنقه قلادة من الذهب الخالص ، وكان إذا خرج فى موكبه ركب عربة ذات أربع عجلات ، يجرها أربعة أفيال سود ، قد حليت جوانبها ومقعدها برقائق الذهب . وكان يرتدى درعاً من الزرد المذهب ، ويحمل حراباً صغيرة مذهبة ، ويحف بركبه مستشاروه وقد ارتدوا أفخر الملابس ، وحملوا مثل الحراب التى يحملها الإمبراطور ؛ وكان يسير خلف الموكب الملكى جماعة من العازفين على الناى .

ويضيف السفير أنه حينما دخل على عاهل البلاد ركع فى حضرته وعظمه حتى كادت جبهته تمس الأرض ، ولكن الإمبراطور رجاه أن يستوى على قدميه ، فتقدم نحو العرش ورفع إلى المليك كتاب سيده إمبراطور الرومان ، فأخذه وطبع قبلة على خاتم الكتاب ، وأبدى بالغ إعجابه بهدايا أخيه الفاخرة ، ثم فض الرسالة الإمبراطورية ودفعها لمن يترجمها له .

وتنطبق هذه الصورة التى تعبر عن أمجاد أوائل ملوك الحبشة على الآثار الباقية من عصرهم فى كتدرائية أكسوم تمام الانطباق ؛ فهذه بعض المسلات الضخمة المنحوتة من الجرانيت قد تفوق فى حجمها وارتفاعها المسلات المصرية ، إلا أنها خالية من النقوش والرموز ، فلا يعلم إلا الله ماذا كان الغرض منها وما دلالتها ، إلا أن تكون مهداة إلى أحد الآلهة التى كان يعبدها الوثنيون منهم فى ذلك الزمان ، وربما كانت هذه المسلات قائمة فى أمكنتها لتحديد القبور الملكية ، بيد أن طرازها غير

معروف على كل حال ، وإن كانت تشبه إلى حدما المسلات المصرية، ولعلها كانت من وحيها ، لولا أن قواعدها مستطيلة لا مربعة كما هو مألوف فى شبيهاتها ، كما أن أعاليها لم تكن هرمية الشكل ، بل كانت أسطوانية يعلوها هلال ، وأكبر الظن أنه رمز دينى ، لأن له شبيهاً على قطع العملة التى كانت آنذاك متداولة فى أكسوم . . .

هذا وتقتصر زخرفة المسلات الأكسومية على أبواب صورية فى أسطح القاعدة الأربعة، وتعلوها أشكال طوابق يحتوى كل طابق منها على عدة نوافذ، فيخيل لناظرها عن بعد أنها أبراج مشيدة من حجر الجرانيت الصلب.

وعلى كل حال فإن هذه المسلات تدل على عظمة بناتها من ملوك أكسوم ، الوثنيين منهم والمسيحيين الأوائل .

وقد ظلت الثقافة الحبشية تنتشر خلال ستة قرون ، فحلت مكان الثقافة الإغريقية المستوردة ؛ وكان أول ملك حبشى عرف فى التاريخ ، ممن نهلوا من ثقافة الإغريق ؛ وظلت اليونانية تستخدم لغة رسمية فى الحبشة وتدون بها المراسيم خلال القرن الثالث الميلادى .

ثم استعملت لغة (الجيز) مكانها ، وأخذت اليونانية تنمحى شيئاً فشيئاً حتى زالت .

ولعل ثقافة (فرومانس) اليونانية كانت هى السبب لما ناله من حظوة لدى ملك أكسوم ؛ إذ رأى أن يستخدم الفتى فى علاقاته الدبلوماسية مع الدول الأجنبية .

أما فى القرن الرابع فقد كان حاكم ميناء أدوليس يجهل اليونانية ،

والدليل على ذلك أنه لجأ إلى أحد التجار لترجمة لوحات بطليموس وأفيلاس التى كانت مخطوطة باليونانية .

وكان الملك (السباعا) الذى أوفد إليه الإمبراطور الرومانى جوستنيان سفيراً ، يجهل اليونانية كذلك ، فقد لجأ إلى مترجم لينقل إليه فحوى رسالة الإمبراطور . . .

ولا غرابة فى أن تظل الكتابة على النقود الحبشية باليونانية زمناً طويلا بعد ذلك ، فهذا شأن الشعوب المتأخرة إلى أن تجد طرازاً جديداً من العملة فتأخذ به ، والشاهد على ذلك أن أن أوائل الخلفاء المسلمين نقلوا عن البيزنطيين أشكال نقودهم ، فضربت النقود العربية وعليها رسم الصليب ؛ وكذلك كانت الحال فى الحبشة ، إذ ظل ريال مارى تيريز متداولا حتى نهاية القرن الماضى ، وما زال يستعمل حتى الآن فى كثير من نواحى الحبشة . . .

هذا والمفروض أن اليونانية كانت لغة الكنائس فى الأصل ، وقد أدخلها التجار الرومانيون الأوائل الذين وفدوا إلى الحبشة وعاشوا فى ربوعها ؛ وكان أول العهد بترجمة التراتيل والأناجيل إلى لغة (الجيز) فى الربع الأخير من القرن الخامس ، حينما بدأ الأحباش يدخلون فى الدين المسيحى أفواجاً ، أما مترجمو هذه الأسفار الدينية فجماعة من أولياء المسيحية عرفوا فى التاريخ باسم القديسين التسعة ، ولعلهم كانوا من الرهبان السريان الذين نزحوا من سوريا إلى الأقطار الحبشية ، وقاموا إلى جانب ما أدوه من خدمات للمسيحية بترجمة عدة مؤلفات يونانية ، أخصها ما يتصل بأصول الرهبنة .

الكنيسة الحبشية

سبق أن ذكرنا أن بطريرك الإسكندرية هو الذى رسم (فرومانس) أول أسقف لدولة أكسوم ، ومنذ ذلك العهد درج باباوات الكرازة المرقسية على تعيين مطارنة الحبشة ، بوصفهم أصحاب الحق دون غيرهم فى هذا التعيين ، على خلاف الكنائس الشرقية الأخرى التى لا تعترف بالمركزية إلى هذا الحد .

ويؤدى المطارنة مهامهم ويتولون أعباءهم نيابة عن البطريرك وباسمه ، وليس لهم حرية التصرف فى مناطق اختصاصاتهم ، وقد طبقت السياسة المركزية المذكورة ، على غرار ما درجت عليه الكنيسة القبطية ، فى الحبشة أيضاً ، فأصبح الكاتوليكوس ، الذى يلى البطريرك فى ترتيب الرتب الكهنوتية ، ذا امتيازات وحقوق محدودة على الأراضى التابعة لكنيسته .

وقد ابتدع الأقباط مادة قيل أنها قد تقررت فى المجمع الكهنوتى الأكبر الذى عقد فى (نيسيه) قبل تأسيس الكنيسة الحبشية — تنص على ألا ينتخب الإثيوبيون كبير أساقفتهم وإنما يعينه بطريرك الإسكندرية ، وهو وإن كان يعادله من الناحية الشرفية فى المقام والرتبة ، لا يستطيع تكريس من دونه من المطارنة ، أى أنه لا يتمتع بكل سلطان البطريرك المرقسى . . .

كما ينص قرار المجمع الكهنوتى على أنه لو فرض – وهو فرض مستبعد – أن عقد مجمع الكرادلة برياسة البابا فى روما ، فإن بطريرك الحبشة يكون هو التاسع فى الترتيب التنازلى بين سائر بطاركة العالم .

أما امتيازات مطران الحبشة ، أو (أبونا) كما يحلو للأحباش أن يسموه ، فغامضة غير محدودة ، إذ يبدو أنه كان من سلطاته فى وقت من الأوقات أن يرسم ما لا يزيد على سبعة أساقفة ؛ والحكمة فى تحديد هذا الرقم ، أنه بمقتضى القوانين الكهنوتية ، لا يمكن أن يتم اختيار بطريرك قبطى إلا إذا توافر من الأساقفة اثنا عشر على الأقل .

وفى الجملة تعتبر الكنيسة الحبشية تابعة للبطريركية المرقسية تبعية تامة فى العقائد والتطبيقات والأنظمة والمراسيم على حد سواء . . .

فى ظلمات التاريخ

يعتبر ظهور الإسلام نقطة تحول فى تاريخ الحبشة ، فقد ظلت هذه المملكة ، حتى ذلك العهد ، على اتصال دائم بحضارة ترسم خطاها وتهتدى بهديها وتسير طيعة فى أعقابها ، دون أن تتأثر بالمؤثرات الخارجية أو الأحداث التى كانت تتوالى على العالم

وكم اضطهد أباطرة الرومان أعداء المسيحية خارج نطاق إمبراطوريتهم ونكلوا بهم ، فتعقبوا الفرس الذين كانوا يعتنقون ديانة زورواستر ، وأحلافهم اليهود والوثنيين ، ولكن الإمبراطور جوستنيان الرومانى على الرغم من شدة تعصبه ، ظل مرتبطاً بأطيب العلاقات بملك أكسوم (السباعا) ، ولم يحاول مرة أن يكرهه على الخروج عن معتقداته التى ورثها عن أسلافه منذ عهد سليمان إلى أن ترعرعت المسيحية وتأصلت جذورها فى الحبشة وأصبحت دين الدولة الرسمى ، وظلت صلات المودة مستمرة مع دولة الرومان المسيحية . . .

ثم امتدت فتوح المسلمين إلى فلسطين وسوريا ومصر عام ٦٤٢ ميلادية ، فأصبحت دولتا الحبشة والنوبة فى عزلة تامة عن العالم الخارجى ؛ ومنذ ذاك الحين غرق تاريخ الحبشة فى دياجير الظلام ، فلا نكاد نعرف عنه إلا ما يأتينا لماماً من تواريخ البطاركة الأقباط ، وتلميحات أو

إشارات فى كتب المؤرخين والجغرافيين العرب ؛ ثم بدأت خيوط الفجر تظهر فى سماء التاريخ الحبشى قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، فراح الكتاب الوطنيون يدونون الأحداث المحلية على صورة بدائية قريبة الشبه بما يروى فى الأوساط الشعبية من مغامرات أبى زيد الهلالى ، إلى أن هبط البرتغاليون فى الأقطار الحبشية خلال القرن السادس عشر ، فصار لدينا عن تاريخ الحبشة مجموعة من الوثائق والملاحظات عن تطور المدنية الحبشية ، وضعها عدد من الكتاب والباحثين الممتازين .

فيروى أن أول اتصال بين الأحباش ودولة الإسلام الفتية لم يكن طابعه العداء أو بقصد العدوان ؛ فقد رحب ملك الحبشة فى بلاطه بالمسلمين الذين هاجروا من مكة الوثنية فى بدء الدعوة المحمدية . . .

وقد ورد فى كتب السيرة أن سيدنا محمداً بعث إلى ملك الحبشة قبل أى ملك آخر من ملوك الأرض ، برسالة دعاه فيها إلى الإسلام بدين الله الحنيف ، ويقال إن ملك الحبشة تلقى هذه الدعوة بما يليق بها من تبجيل وحسن إدراك ، بعد أن تبين صدق محمد واعترافه بالنبوة العيسوية وطهارة السيدة العذراء مريم .

وقد آمن بعض الأحباش برسالة محمد ، إلا أن ملوك الحبشة ظلوا على دين آبائهم ، ومع هذا لم يمتد جهاد الإسلام إلى هذا القطر المسيحى .

نعم إن العلاقات بين الأحباش وبعض خلفاء المسلمين لم تكن علاقات ود بصفة مستمرة ، فقد كان رعايا ملك أكسوم يستأثرون دون

سواهم بتجارة البحر الأحمر ، وكثيراً ما كانوا يشنون الغارات على سواحل شبه جزيرة العرب ، كما حدث خلال عام ٧٠٢ إذ اقتحم الأحباش ميناء جدة ، وخيل لبعض الناس أنهم سيمضون فى طريقهم إلى مكة لتحطيم الكعبة ، فما كان من الخليفة إلا أن جرد حملة استولت عنوة على الموانى الحبشية التى كان يلجأ إليها القراصنة الأحباش . . .

ويقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعث بأحد مواليه المغضوب عليهم منفياً إلى ميناء مصوع ، مما يدل على أن هذا الميناء كان ملكاً للعرب منذ عام ٦٣٤ ، على أن هذه الملكية لم تدم طويلا ، وآية ذلك اعتداء القراصنة الأحباش على الأراضى العربية ذاتها .

ولم يتم استيلاء العرب على المنطقة الساحلية الحبشية إلا فى القرن الثامن ، كما سبق أن ذكرنا ، انتقاماً لما فعله الأحباش فى جدة .

ويرى زائر القصر الذى بناه الوليد الأول (٧٠٥ — ٧١٥ هجرية) صورة زيتية ضخمة تضم ، فيما تضم ، نجاشى الحبشة إلى جانب قيصر الروم وكسرى أنو شروان ولذريق آخر ملوك أسبانيا ؛ وكلهم ممن دانت عروشهم للعرب وخضعوا لسلطانهم .

ولا نسوق هذا افتياتاً على التاريخ ، فقد كانت جزر دهلاخ الواقعة تجاه الساحل الحبشى فى أيدى العرب الذين قضوا على القراصنة الأثيوبيين قضاء مبرماً ، كما دُمر فى ذلك العهد ميناء (أدوليس) فلم تقم له بعد ذلك قائمة .

وبعد ضياع الموانى انقطعت أسباب الاتصال بين الأحباش والعالم

الخارجي انقطاعاً تاماً ، فولوا وجوههم شطر الجنوب خلال القرنين التاليين ، وراحوا يوفدون المبشرين إلى ولايات أمهرا وشوا ، لنشر المسيحية بين سكانها المتوحشين .

وبينما كان ملوك الحبشة يخطبون ود أقرانهم الملوك المعادين للعرب ، أخذت قبضة الخلفاء المسلمين تتراخى عن الساحل الحبشي ، وانضوت قبائل (بيدجا) — الوثنية التي اعتنقت الإسلام — تحت لواء ملوك اليمن .

وفي أواخر القرن التاسع أخذ ملوك الحبشة يستردون أراضيهم الساحلية التي كان يحتلها العرب ، فعادت الحبشة مرة أخرى دولة بحرية تجارية تربطها باليمن علاقات الصفاء وتبادل المنافع ، ويؤدي المسلمون من سكان جزائر دهلاخ وميناءي مصوع وزيلع الجزية للعاهل الحبشي المسيحي .

وظلت مملكة الحبشة مزدهرة حتى سنة ٩٧٥ ميلادية ، ثم أصابتها نكسة نورد أسبابها فيما يلي ، كما جاءت في تاريخ بطارقة الإسكندرية :

كتب النجاشي إلى جورج ملك النوبة يستنجد به من شر ملكة وثنية طغت على بلاده وأذلت رعاياه وأحرقت الكنائس والأديار في بلاده . وكان سبب هذه البلايا والنكبات التي انصبت على بلاده فيما يرى ، أن البلاد محرومة من بركة المطارنة ؛ وكان سبب هذا الحرمان أن أحد أسـلافه استدعى وهو على سرير الموت مطران الحبشة وطلب إليه أن يقرر من الذي يلي العرش من بعده ، أولده الأكبر ، أم ولده الأصغر ؟ فأشار عليه المطران بطرس باختيار الأصغر ، ولكن اثنين

من الرهبان المصريين (ميناس وفكتور) تدخلا فى الأمر ، وأبرزا كتاباً من بطريرك الإسكندرية يرمى فيه المطران بطرس بالزور والادعاء ، ويقرر أن الزعيم الروحى الحقيقى هو (أبونا) ميناس ؛ فتشجع الأخ الأكبر وطرد شقيقه بعد أن قتل الأب بطرس ، واستتب له الملك حيناً ، غير أن الراهب فكتور قد سول له الشيطان أن يستولى على نفائس الكنيسة ويفر إلى مصر ، حيث راح ينفق آلاف الجنيهات على ملاذ"ه . . .

فلما اكتشف النجاشى ذلك أمر بإعدام الأنبا ميناس ، وراح يبحث عن خليفة له ، فغضب بطريرك الإسكندرية وأبى أن يعين خلفاً له ، كما سار على هذا النهج خلفاؤه من بعده ، فحرمت البلاد بركة المطارنة !

ومن أجل هذا الحرمان الذى انصبت بسببه النكبات على الحبشة ، يرجو الملك أخاه ملك النوبة أن يتشفع لدى البطريرك الأكبر ويطلب له الغفران ، ويعين للكنيسة الحبشية راعياً من قبله . . .

ويضيف كتاب « تاريخ بطارقة الإسكندرية » إن ملك النوبة وفق فى مساعيه فمنح البطريرك البركة لابنه النجاشى ، وأرسل مطراناً إلى الحبشة ، فما لبث أن انتصر على أعدائه ، وفرت جيوش الملكة الوثنية إلى ديارها مهزومة .

ولو أننا سلمنا بحقيقة ما ذكر من أن اللعنة قد زالت عن الحبشة بعطف بطريرك الإسكندرية ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن هيبة النجاشى قد أصيبت فى ذلك التاريخ بجرح لم يلتئم ؛ فقد انفصلت عن التاج

أملاك شاسعة ، تأسست فيها ممالك إسلامية فى جزر دهلاخ ، كما ضاعت زيلع ، وانتشر الدين الإسلامى فى معظم مناطق الصومال العليا ، فأصبح العداء سافراً والخطر جاثماً بصفة مستديمة على صدر ملوك الحبشة .

وفى عام ١١٥٠ أوفد النجاشى إلى القاهرة سفارة إلى البطريرك ترجوه أن يعين خلفاً لمطران الحبشة ميخائيل الذى هرم ووهن عظمه ولم يعد يستطيع القيام بمهام رسالته ، فيما يزعم النجاشى . . .

ولم يكن هذا هو السبب الحقيقى لطلب تعيين خلف للمطران ميخائيل ؛ وإنما يرجع السبب إلى أن هذا النجاشى كان قد اغتصب العرش من الملك الشرعى ، ، فأبى المطران ميخائيل أن يمنحه البركة ويتولى تتويجه . . .

فلما بلغت البطريرك حقيقة الأمر ، بعث إلى النجاشى يقول له: إن تقاليد الكنيسة تحول دون تعيين مطران جديد ما دام الرسول الأصيل على قيد الحياة . ورفض راعى الكنيسة المرقسية أن ينزل على رجاء النجاشى رغم ضغط رئيس وزراء مصر عليه . . .

والمفهوم بداهة أن الغاصب الذى نحن بصدده ، هو مؤسس أسرة زجوى التى حكمت الحبشة مائة وثلاثة وثلاثين عاماً ثم نزل آخر ملوكها العرش عام ١٢٧٠ ميلادية . . .

ويبدو أن أعضاء هذه الأسرة الملكية الغاصبة ، رفعوا شأن قبائل آجاو على حساب العناصر الأرستقراطية السامية ، واتخذوا من مدينة

لاستا ، معقل قبائل الآجاو المذكورة ، عاصمة لملكهم ؛ وكان معظم أفراد الأسرة يحملون أسماء حامية الأصل أو مشتقة من الحامية ، كما كانت لغة الدولة الرسمية فى عهدهم هى لغة (الجيز) .

وكانت هذه الأسرة ، كما أسلفنا ، تدعى — كما كانت تدعى سالفتها — أنها من سلالة إسرائيلية ، مع فارق واحد ، هو أنها لا تنتمى إلى سليمان الحكيم ، بل إلى موسى عليه السلام . . .

على أن ملوكها اعتنقوا المسيحية ، وكانوا مضرب الأمثال فى التقى والورع ، فأقاموا الكنائس ، ولم يضنوا بمال فى سبيل زيادة الأديار ودور العبادة والتنسك ، وخاصة فى البقاع الجنوبية ؛ كما ينسب إليهم الجانب الأكبر من أمجاد الحبشة فى القرون الوسطى .

ولا يسع الباحث إلا أن يدهش حين يرى تلك الكنائس التى نحتت كل منها من صخرة واحدة ، وتم تفريغ باطنها ، وحليت جدرانها الداخلية برسوم بارزة تمثل القديسين . . .

ولعل أغرب هذه الكنائس وأفخمها كنيسة (مخلّص العالم) التى قُدَّت كذلك من صخرة واحدة ، يبلغ طولها ٣٥ متراً ، وعرضها خمسة وعشرين متراً ، وتحيط بها أعمدة ضخمة ، وينقسم داخلها إلى خمسة أجنحة ، كما تزين جدرانها صور بارزة لملوك أسرة زجوى ، وبعض الرسل . . .

ولم يثبت بصفة قاطعة من الذى أوحى ببناء هذه الكنائس الفخمة ، ومن الذى قام بتصميمها ، غير أن الأساطير الحبشية تنسبها إلى جماعة

من البنائين الأقباط ؛ ومهما يكن الأمر ، فإن بعض تفاصيلها المعمارية تدل على أنها مستوحاة من الطراز العربى تارة والطراز البيزنطى تارة أخرى .

وفيما عدا هذه الآثار التي بقيت من عصر ما بين الفتوحات الإسلامية ، وفيما عدا ما نعرفه من عودة الأسرة المالكة السليمانية — لا نكاد نعرف من تاريخ الحبشة بعد ذلك إلا قليلا مما يتصل بعلاقات الكنيسة الحبشية بالبطريركية القبطية فى الإسكندرية ، على أن هذه العلاقات قد اعتراها الوهن وقتاً ما ، نتيجة لفتح المسلمين لمصر ، إذ صارت المواصلات بين البلدين أكثر مشقة وأقل أمناً مما كانت فى عهد الرومان ، وكثيراً ما حدث فى أثناء الاضطرابات والقلاقل أن كانت البعثة الحبشية تتأخر عن الوصول إلى مصر عدة سنوات ، وكان بطريرك الإسكندرية يخضع لأوامر الوالى المسلم ، ولم تكن صلات الوالى به تخلو من الحذر والحيطة ؛ ألم يكن البطريرك على اتصال دائم بملوك الجنوب المسيحيين الذين يخضعون دائماً لتوجيهاته الدينية ؟

ولم يكن ملك الحبشة يستطيع أن يوفد بعثة للمطالبة بتعيين مطران جديد إلا بعد أن يطمئن إلى حسن صلته برجال البلاط فى القصر الملكى بالقاهرة ؛ وكان على البطريرك أن يؤدى إلى الخزانة المصرية جعلا كبيراً حتى يسمح له بتكريس مطران جديد للكنيسة الحبشية . . .

والتحليل الطبيعى لهذا الوضع الغريب يتلخص فى أن بطريرك الإسكندرية يهتم بطبيعة الحال بأن تظل امتيازاته قائمة بالنسبة لما له من

نفوذ على الكنيسة الحبشية .

وملوك الحبشة يخشون أن تحل عليهم اللعنة الإلهية إذا هم حُرموا بركة البطريرك أو انقطعت أسباب الاتصال بينهم وبينه .

والملوك المسلمون لا يجدون غضاضة فى التفاهم على أمر لا يضيرهم من بعيد أو من قريب ما دام هذا التفاهم يكفل لهم وسيلة للقيام بضغط غير مباشر على جيرانهم المسيحيين ، للحصول على امتيازات مقابلة من الجانب الحبشى ، كالمطالبة للمسلمين الأحباش بحرية العبادة ، أو الترخيص لهم ببناء المساجد وإقامة الشعائر الدينية ؛ هذا إلى ما يصيبه الملوك المسلمون من كسب مادى يأتيهم على صورة هدايا من الذهب والعاج والعبيد . . .

وليس فى تاريخ هذه العصور المتطاولة أى أثر لمحاولة من جانب ملوك الحبشة فى سبيل التخلص من سلطان بطريركية الإسكندرية ، إلا ما قام به أحد الملوك فى أواخر القرن الثانى عشر حينما حاول الضغط على المطران ميخائيل لكى يقوم برسامة سبعة من الأساقفة ، مستهدفاً بذلك أن ينتخب هؤلاء الأساقفة مطراناً جديداً ، فكان رد المطران ميخائيل أنه لا يستطيع التصرف إلا بإذن من البطريرك ؛ فما كان من الملك إلا أن أوفد إلى ملك مصر سفارة كبيرة لإقناعه بالضغط على بطريرك الإسكندرية للحصول على هذا الترخيص . . .

وكاد الملك ينتصر لرأى ملك الحبشة ، لولا أن أدخل البطريرك فى روعة أن هذه المحاولة ما هى إلا دسيسة يرمى ملوك الحبشة من ورائها

إلى التحرر من ربقة السيادة المصرية « غير المباشرة » على هذه الأقطار ؛ فرفض الملك العرض الحبشى وفشلت المحاولة الانفصالية عن كنيسة الإسكندرية .

وفى هذا العصر توطدت دعائم التقاليد الكنسية التى لم تزل سارية حتى اليوم ، ومقتضاها ألا يجوز بحال ما أن يكون مطران الكنيسة الحبشية من رعايا ملك إثيوبيا ، بل يجب أن يكون مصرياً ممن تدرجوا سلك الكهنوت القبطى . . .

والعيب الظاهر فى هذا التقليد أن مطران الحبشة المصرى الذى لا يعرف سوى اللغة القبطية (والعربية فيما بعد) لم يكن يستطيع أداء رسالته على الوجه الأكمل ، لجهله بلغة الجيز أو اللغة الأمهرية التى تتلى بها الصلوات الكنسية ، فكان المطران مضطر للاعتماد على مترجم .

وثمة صعوبة أخرى ، فقد يحدث فى أحيان كثيرة ألا يكون بين الرهبان المصريين من يقبل أن يظل مبعداً طول حياته بين ظهرانى شعب من الأحباش ؛ فكان بطريرك الإسكندرية يضطر فى تلك الظروف لرسامة راهب لا ترتفع أخلاقه أو سيرته فوق مستوى الشبهات . . .

وعلى الرغم من بعض الحوادث العابرة ، يمكن القول إجمالا إن مطارنة الحبشة من المصريين كان لهم الفضل فى بقاء الكنيسة الحبشية على اتصال مستمر — ولو على بعد — ببقية العالم المسيحى ، كما يرجع الفضل إليهم وإلى رؤسائهم الروحانيين ، بطاركة الإسكندرية ، فيما كان يبذل من جهود فى سبيل بعض الإصلاحات حيناً بعد حين . . .

ونضرب لذلك مثلا ما حدث فى منتصف القرن العاشر ، حينما كلف بطريرك الإسكندرية مطران الحبشة بتعديل مراسيم الكنيسة وتحوير الشعائر الدينية بحيث تطابق الشعائر التى تقام فى الكنائس المصرية ، بتحريم تعدد الزواج ، والتقرب إلى الله عند افتتاح دور العبادة بتقديم القرابين والذبائح ، ووضع قواعد جديدة تكفل عدم سهولة الطلاق على النحو الذى كان مألوفاً فى الحبشة حتى ذلك العصر ، إذ كان ينص فى عقد الزواج على حق الرجل فى نبذ زوجته فى نظير تعويض تتقاضاه المرأة المطلقة !

كما كانت المعاشرة (الزواج العرفى) مباحة ، فقضى عليها بنص من القانون الكنسى الذى يأبى تعميد الأطفال الذين يأتون عن هذا الطريق المحظور .

وكان من أثر هذه الإصلاحات أن أجبرت الكنيسة الملك على طلاق جميع النساء اللواتى كن فى عصمته سوى زوجته الأولى . . .

ومن المحتمل أن أحد ملوك أسرة زجوى قد قام بمحاولة فى سبيل الاتصال بالبابا فى روما والخضوع لقوانين الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أن الوثيقة التاريخية الوحيدة التى تؤيد هذا الاحتمال تعتبر غامضة ضعيفة الدلالة ؛ فما هى إلا صورة رسالة خطها يراع البابا إسكندر الثالث عام ١١٧٧ ووجهها إلى « ابنه المحبوب ملك الهنود » وأشار فيها إلى أن طبيبه الخاص فيليب قابل رسلا أوفدهم الملك المحبوب — يعنى ملك الحبشة — لإبلاغه رغبته فى اعتناق المذهب الكاثوليكى ، وأن ينزل له البابا

عن كنيسة فى روما ومذبح فى كنيسة الرسل بالقدس ؛ وتتضمن الرسالة وعداً من البابا بإجابته إلى جميع ما يلتمس ، على شرط أن يوفد إلى روما سفارة رسمية تحمل هذه الطلبات إلى البابا مكتوبة . . .

على أن هذا الكتاب ، كما يبدو ، لم يصل إلى صاحبه ولم يترتب عليه أى أثر إيجابى ؛ ومن الواضح أن أمر هذا الملك المجهول قد اختلط على قداسة البابا ، فظن أن الأحباش هنود !

ولكن الأمر الذى لا يحتمل الشك ، هو أن الرسل الذين قابلوا طبيب البابا كانوا موفدين من قبل ملك الحبشة ؛ فمن الثابت تاريخياً أن الخلاف كان على أشده خلال هذه المدة بين ملك إثيوبيا وكنيسة الإسكندرية .

عودة الأسرة السليمانية

لم تنقض عدة أيام من عام ١٢٧٠ حتى شهدت الحبشة انقلاباً قام به أحد المطالبين بعرش الأسرة السليمانية فأطاح بعرش آخر ملوك أسرة زجوى الغاصبة ؛ وكان هذا الانقلاب نقطة البداية لبعث الآداب الحبشية التى ازدهرت طوال خمسة قرون ، وكانت هذه الثقافة قاصرة حتى ذلك العهد على المؤلفات المنقولة عن اليونانية على أيدى خريجى مدرسة القديسين التسعة ؛ ثم تطورت الثقافة الجديدة فراحت تنهل من الآداب القبطية والعربية ، وخاصة الكتب الدينية فى اللغتين ، وتتناول تاريخ السيد المسيح ، والرسل الاثنى عشر ، وقصة السيدة العذراء ، وما تم من معجزات فى عصرهم ؛ كما وضع بعض الكتاب سير أولياء المسيحية الأحباش ، أمثال زاجتى لاليبالا وتقلاحايمانود ، ممن عاشوا فى ذلك العصر ؛ كما كتبت الأناشيد الكنسية والتراتيل الدينية ونماذج الصلوات بلغة الجيز ؛ ويلى هذه المؤلفات فى الأهمية ما وضع من الأساطير الشعبية ، مثل كتاب « كبرا نوجاست » الذى يجمع بين أصول الأسرة السليمانية وأمجادها فى التاريخ ، وكتاب تاريخ اليهود بقلم يوسف بن غوريون ، وتاريخ الإسكندر الأكبر الذى يشتمل على بيانات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية ، وقد نقل عن العربية ، ومؤلفه راهب مصرى عاصر غزو المسلمين لمصر ؛ ويعتبر هذا

الكتاب مرجعاً قيماً لما فيه من سرد منطقى واقعى لبعض الأحداث التاريخية .

وفى هذا العصر أيضاً وضع تاريخ الحبشة المعاصر (وقتذاك) أما ما سبقه من عصور فليس هنالك لدينا إلا قوائم بأسماء الملوك تختلط تواريخهم وعهودهم ، فيتعذر معرفة المتقدم منهم والمتأخر ، على عكس المراجع التى توجد فى محفوظات القصر الملكى بأديس أبابا منذ بداية القرن الرابع عشر ، والتى تسجل الأحداث التاريخية بحسب ترتيبها الزمنى على صورة منتظمة ، وتروى أعمال الملوك وفتوحهم وما خلفوه من تراث تاريخى ، أمثال زازا ياكوب (ابن يعقوب) الذى ارتقى العرش عام ١٤٣٤ ، وخلفائه بيدا ماريام (بيد مريم) ولينا دنجل (بخور العذراء) .

ويروى أن الملك آمدا سيون (حكمة صهيون) الذى حكم الحبشة فيما بين سنتى ١٣١٤ ــ ١٣٤٤ ، كان فى أول عهده فاسقاً خليعاً ، وكانت أولى ضحايا غوايته حظيّة أبيه ، ثم اغتصب اثنتين من شقيقاته ؛ فما كان من الراهب (هونوريوس) إلا أن استنزل على رأسه اللعنة ، وتوعّده بالويل والثبور ؛ فكانت عاقبته الجلد فى الطريق العام حتى فاضت روحه ، وفى تلك الليلة شبت النار فى العاصمة فالتهمت الجانب الأكبر منها ، وقال رجال الدين تعليقاً على ذلك الحريق الجبار إن دماء الراهب هونوريوس قد تحولت إلى نيران أتت على الأخضر واليابس فى المدينة .

وقد ساور الملك الشك فى أمر رجال الكنيسة ، فاتهمهم بأنهم هم

الذين أشعلوا النار ، وأمر بأن يساقوا إلى المنفى ؛ ثم ثاب بعد هذا الحادث إلى رشده ، فصمم على أن يسلك السبيل السوىّ ، ويعف عن هذه الكبائر ، ويقود شعبه إلى المجد ، فجهز جيشاً كبيراً خرج على رأسه لسلسلة من الغزوات المظفرة ، فضم كثيراً من الأراضى إلى رقعة مملكته ، وكان يحكمها المسلمون ، على طول المنطقة الساحلية من إريتريا الحالية .

ويقال إنه كان يحرق بلاد المسلمين ويخضع ملوكهم فلا يلبثون أن يعودوا ليشنوا الغارات على أطراف مملكته ، انتقاماً لما نالهم على يديه ، فيحرقون الدساكر والمدن ويسبون النساء وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم ، فيعود الملك إلى الغارة عليهم ، وهكذا . . . ولما طال الأمر بعساكره انفضوا من حوله وآثروا السلامة والراحة من هذه الحروب التى لا تنتهى ، فقام الملك على رأس حفنة من رجاله المخلصين يذود عن حياضه ، فلما رأى الجند ذلك عادوا إلى مليكهم خاشعين مستغفرين يطلبون إليه قيادتهم إلى النصر . . .

ويمضى التاريخ يعدد حروب آمدا ضد المسلمين ، وخضوعهم له ، ثم ثوراتهم عليه وحملاتهم الانتقامية على أراضيه ، حتى نهاية عهده ؛ كما تمتلىء صفحات التاريخ بأمثال هذه الحروب طوال القرن الخامس عشر الميلادى ؛ ويبدو أن معظم الدويلات الواقعة عند أطراف الأراضى الحبشية كانت قد خضعت لسلطان ملك إثيوبيا وكانت تؤدى كل منها الجزية المفروضة إلى خزانته .

ويمضى تاريخ ملوك الحبشة فى سرد تفاصيل الحملات الحربية التى جردها هؤلاء الملوك ، على وتيرة متشابهة ؛ ولسنا ندرى مدى الحقائق فيها ومدى التفاخر ؛ على أن الملك (زارا ياكوب) الذى حكم ثمانية وثلاثين عاماً فى منتصف القرن الخامس عشر ، كان جندياً عظيما بقدر ما كان نزّاعاً إلى الإصلاح ، وكان من قراراته الحكيمة القضاء على الوثنية فى بلاده ، وإنذار من لا يؤمن بتعاليم المسيح بالموت شنقاً ومصادرة أملاكه ، وجرد لهذ الغرض جيشاً من الجواسيس لضبط من كانوا يعبدون الأصنام والنار خلسة ، وكان يحرم على أعوانه الأكل على موائد الغير ، والاتصال الجنسى بالنساء دون الحليلات ، وقص شعورهم حتى لا تقع فى أيدى السحرة فيكيدون لهم . . .

وكان زارا يحث الكهنة على إلقاء عظاتهم خارج الكنائس فى غير أيام الآحاد .

وقصارى القول أن زارا لم يترك باباً إلا طرقه فى سبيل تحويل بلاده إلى المسيحية الصحيحة . وفى عهده تم الصلح بين الكنيسة الحبشية وقداسة البابا فى روما ، فأوفد مندوبين عن كنيسته إلى المجمع الكنسى الذى عقد بمدينة فلورنسا عام ١٤٤١ ، والذى أعرب فيه مندوبو بطريرك الإسكندرية ومواليه مطارنة الحبشة عن الخضوع لسلطة الفاتيكان .

بيد أن هذا الوضع لم يؤخذ به فى الحبشة بصفة جدية ، إذ ظلت الكنيسة والشعب على إيمانهم بتعاليم الأرثوذكسية ؛ ويبدو أن أقطاب الكنيسة الحبشية استنكروا هذا التجاوز من جانب مندوبيهم ، فلم يرد

ذكر لهذه المفاوضات التى دارت والقرارات التى اتخذت بمجمع فلورنسا فى تاريخ الحبشة ، فيما عدا ما ذكر عن شخص يدعى (فران) قيل أن بابا روما قد انتدبه لتلقين الأحباش تعاليم الكاثوليكية ، فلما مثل فى حضرة الملك زارا ، واجهه بعدد من الفقهاء الأرثوذكس ، فأفحموا الرسول البابوى بما أدلوا به من حجج دامغة ، مما اضطره إلى التعجيل بالرحيل . . .

ولعل هذا الرسول أول أوربى وطىء الأراضى الحبشية ، أما بعده فقد وفد إلى العاصمة رسام من فينسيا يدعى نيكولا برانكاليونى ، قيل أن الملك أعجب بلوحاته إعجاباً شديداً ، فعهد إليه بتزيين جدران بعض الكنائس .

ومما يذكر أن برانكاليونى هذا رسم لوحة زيتية للسيدة العذراء تحمل ولدها يسوع على ذراعها اليسرى ، فلما رأى رجال الدين الأحباش ذلك الوضع استنكروه واحتجوا لدى « ملك الملوك » بأن هذا الوضع لا يرضى السيد المسيح ، إذ أن الذراع اليمنى أفضل من اليسرى ، فلا بد من إحراق هذه اللوحة !

ولكن الملك انتصر للرسام ، وظلت اللوحة معلقة فى كنيسة السيدة العذراء حتى أحرقت أثناء غارة شنها رجال قبائل (الغالا) على العاصمة الحبشية خلال عام ١٧٩٠ .

وعلى الرغم من توسلات برانكاليونى ، لم يسمح له قط بمغادرة البلاد ، فقضى فيها أربعين عاماً إلى أن قضى نحبه ، وقد وصفه الفاريز بأنه كان رساماً ممتازاً وسيداً مهذباً شريفاً وصاحب أفضال على

من يعرف ومن لا يعرف . . .

ولا شك أن الفن الحبشى قد تأثر كثيراً من اللوحات التى خلفها ذلك الفنان العظيم فى مختلف أنحاء الحبشة ، والتى شاهد معظمها الفاريز ووضع لها وصفاً تفصيلياً دقيقاً .

القس حنا :

وقد سرت فى أوربا خلال القرن الثانى عشر شائعات حول ملك مسيحى غامض ، يدعى القس حنا ، يحكم بلاداً مترامية تقع فى أقاصى الأرض ، ولا يعرف حدودها إلا خالق السماوات . . .

وقد نشأت هذه الشائعات من كتاب قيل إن ذلك الملك بعث به إلى الإمبراطور (مانويل كومنين) ، وعدد فيه عجائب مملكته ، فذكر أنه صاحب الأمر والسيادة على ثلاثة وسبعين أميراً يؤدون له الجزية ، وأن فى بلاده أعجب المخلوقات وأغرب الحيوانات ، ومنها ما كان يعيش فى أوائل العهد الحجرى ، كالتنين الذى يعيش فى النار والذى صنع للملك من جلده ثوب يرتديه ولا ينفع فى تنظيفه الماء بل اللهيب . . .

ويمضى الملك الغامض فى كتابه قائلا إنه يحكم سلالات الرجال المدنسين الذين حكم عليهم الإسكندر المقدونى بالانزواء فى مدن الشمال فلا يغادرونها إلى يوم القيامة ، وإنه يقطن قصراً وضع تصميمه القديس توما (سان توماس) رسول المسيح إلى الهند ، وفى هذا القصر من العجائب ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ، ففيه مرآة ينظر فيها فينكشف أمام عينيه

مختلف أنحاء إمبراطوريته !

ويقول القس حنا إن لديه عشرين أسقفاً ، واثنى عشر كردينالا ، هذا إلى جانب بطارقة الهند وسمرقند وصوص ؛ وعلى الرغم من هذا السلطان الواسع والمجد العظيم ، يأبى عليه ورعه إلا أن يطلق على نفسه لقب القس .

ثم يذكر أنه حينما يخرج للحرب يتقدم فيالقه ثلاثة عشر رجلا يحمل كل منهما صليباً من الذهب الخالص ، ويتبعه عشرة آلاف فارس ومئة ألف راجل ؛ ولا أمنية له فى الحياة إلا أن يزحف على القدس ويقضى على القوم الكافرين .

نقول : سرت هذه الشائعة فى غرب أوربا سريان النار فى الهشيم ، وأخذها الناس على علاتها ، فبنوا الآمال العريضة على ذلك الملك العظيم الورع فى القضاء على المسلمين .

ولا ندرى على أى أساس بنيت هذه الأسطورة العجيبة ، ولا كيف نسبت إلى ملك الحبشة ، اللهم إلا أن تكون قد تسربت عن طريق تقرير رفعه أحد الأساقفة فى سوريا إلى البابا عام ١١٤٥ ، وذكر فيه أنه سمع عن شخص يدعى الكاهن حنا ، تقع مملكته فيما وراء جبال أرمينيا وفارس .

ويذكر الأسقف أن هذا الملك بعد أن هزم الفرس نزل بجيوشه لينتزع القدس من أيدى المسلمين ، ولكنه عجز عن عبور نهر دجلة فعاد إلى بلاده . . .

ولعل هذا الأسقف كان يقصد الأمير جورخان التركى الذى أوقع

بجيوش سلجوق ملك فارس هزيمة منكرة، فإن تحريف اسم الأمير التركى جورخان إلى الأب حنا (بيرجان بالفرنسية) يحتمل اللبس كما أن رنينه يكاد يكون واحداً فى أذن الأوربى .

غير أنه ليس ثمة دليل على أن هذا الأمير التركى كان مسيحياً ، فلما كانت الهزيمة الماحقة التى ألحقها بجيوش سلجوق المسلم وذكرها المؤرخون المسلمون ، أضفوا على جوخان صفة (الكافر) ، وهى الصفة التى كانت تطلق فى بعض مراحل التاريخ على المسيحيين (الكفرة) ، وهكذا دخل فى روع الناس أن الأمير التركى كان مسيحياً . . .

وهناك سبب آخر ربما كان عاملا من عوامل هذا الخلط ، فقد بعث البابا إسكندر الثالث إلى ملك الحبشة بكتاب دعاه فيه « حنا ملك الهنود العظيم » ، وراح يزجره على كبريائه الزائفة وزهوه الأجوف الذى يعتبر من أبشع الخطايا ، وفى هذا ما يشبه الإشارة الصريحة إلى الكتاب الذى قيل إن حنا بعث به إلى الإمبراطور مانويل كومنين . . .

ولما وصلت بعثة المستكشفين الذين أوفدهم هنرى ملك البرتغال إلى ساحل أفريقيا الشرقى ، للكشف عن طريق بحرى مأمون بين لشبونة وسواحل الهند ، ترامى إلى مسامعهم خبر ملك مسيحى عظيم يسيطر على الأواضى الواقعة إلى الجنوب من مصر ، ويدعى الكاهن حنا ، فبدا للملك البرتغال أن يعقد محالفة مع هذا العاهل المسيحى ، فأوفد إلى بلاده بعثة على رأسها الرحالة (بارتولميو دياز) لعقد اتصال بحرى مباشر بين البرتغال والهند عن طريق الساحل الشرقى الأفريقى ، وكان من أعضاء البعثة رحالة يدعى

بدرو دى كوفيلهام ، تمكن من الدخول إلى الأراضى الحبشية والمثزل بين يدى ملك البلاد ؛ فلما خبره الملك وعجم عوده ، اصطفاه وأبى أن يسمح له بالعودة إلى بلاده ، فقضى ثلاثين عاماً فى الحبشة ومات فيها .

ويبدو أنه بعد أن نجح البرتغاليون فى اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند ، قلّ اهتمامهم بالكاهن حنا عدة سنوات ، ثم عادوا فتحالفوا معه لكى يأمنوا شر رعايا الدول الإسلامية التى كانت مبعثرة فى ذلك الوقت على سواحل خليج عدن والخليج الفارسى ، وكان أهلها يشنون الغارات على السفن البرتغالية .

وقد تولى عقد هذه المحالفة سفارة أوفدت إلى الحبشة فى عهد الملك (لبنا دانجل) عام ١٥٢٠ ، وكان على رأسها فرانشسكو ديار الذى سبق أن أشرنا إليه فيما سبق ، والذى وضع كتاباً ضخماً فى وصف البلاد الحبشية ، يعتبر أول مرجع أوربى للباحثين فى تاريخ هذا البلد .

حضارة القرون الوسطى

فى الحبشة

ما زال اللقب الرسمى الذى يحمله عاهل الحبشة منذ فجر التاريخ الحبشى المعروف ، هو ملك الملوك ، ويرجع هذا إلى أن المليك المذكور يتحكم فى مصاير عدة دويلات صغيرة يحكم البعض منها ملوك آلت إليهم عروشها بالوراثة ، ويحكم البعض الآخر أمراء يؤدى كل منهم الجزية السنوية لملك الملوك ؛ وكان منهم المسلمون والوثنيون الذين تقع إماراتهم على حدود الحبشة ، مبعثرة هنا وهناك فى الجنوب والغرب ؛ ولكى يوثق ملك الملوك علاقاته بهم كان يعقد على بناتهم ، ثم لا يلبث أن يحولهن إلى المسيحية * ، غير أن هذه السياسة لم تكن تثمر إلا فى النادر ؛ فقد روى الفاريز أن الحرب التى شبت فى عهد النجاشى لبنا دينجل ، كان سببها رفض ملك الملوك الزواج من أبنة ملك هايدا ، بدعوى بروز أسنانها ؛ ولما كانت قد تحولت عن الإسلام ، دينها الأصلى ، إلى المسيحية ، فقد أصبح من المتعذر أن تعود إلى بلاط أبيها ، فتزوجت بعد ذلك من أحد النبلاء ، واعتبر أبوها الملك هذا الزواج جرحاً أصاب كرامته !

(*) يأبى الإسلام على المرأة المسلمة أن تكون زوجاً لغير مسلم ؛ فإذا فعلت فهى فى حكم المرتدة عن دينها .

ومن المفارقات العجيبة التى تنتج عن هذه السياسة ، ما يحدث أحياناً من أن تصبح ابنة أحد الملوك المسلمين وصية على عرش الحبشة ، إذ أن القانون يقضى بأن تكون الملكة الأم وصية على الملك القاصر حتى يبلغ سن الرشد . . .

وقد حدث أن تولت هيلين ، الملكة الأم ، المفاوضات مع البرتغاليين ، وكان أبوها ملك « دوارن » مسلماً ، ومع هذا فلم تتساهل فى حقوق بلادها ، بل حصلت لها فى هذه المفاوضات على مزايا لا يستهان بها .

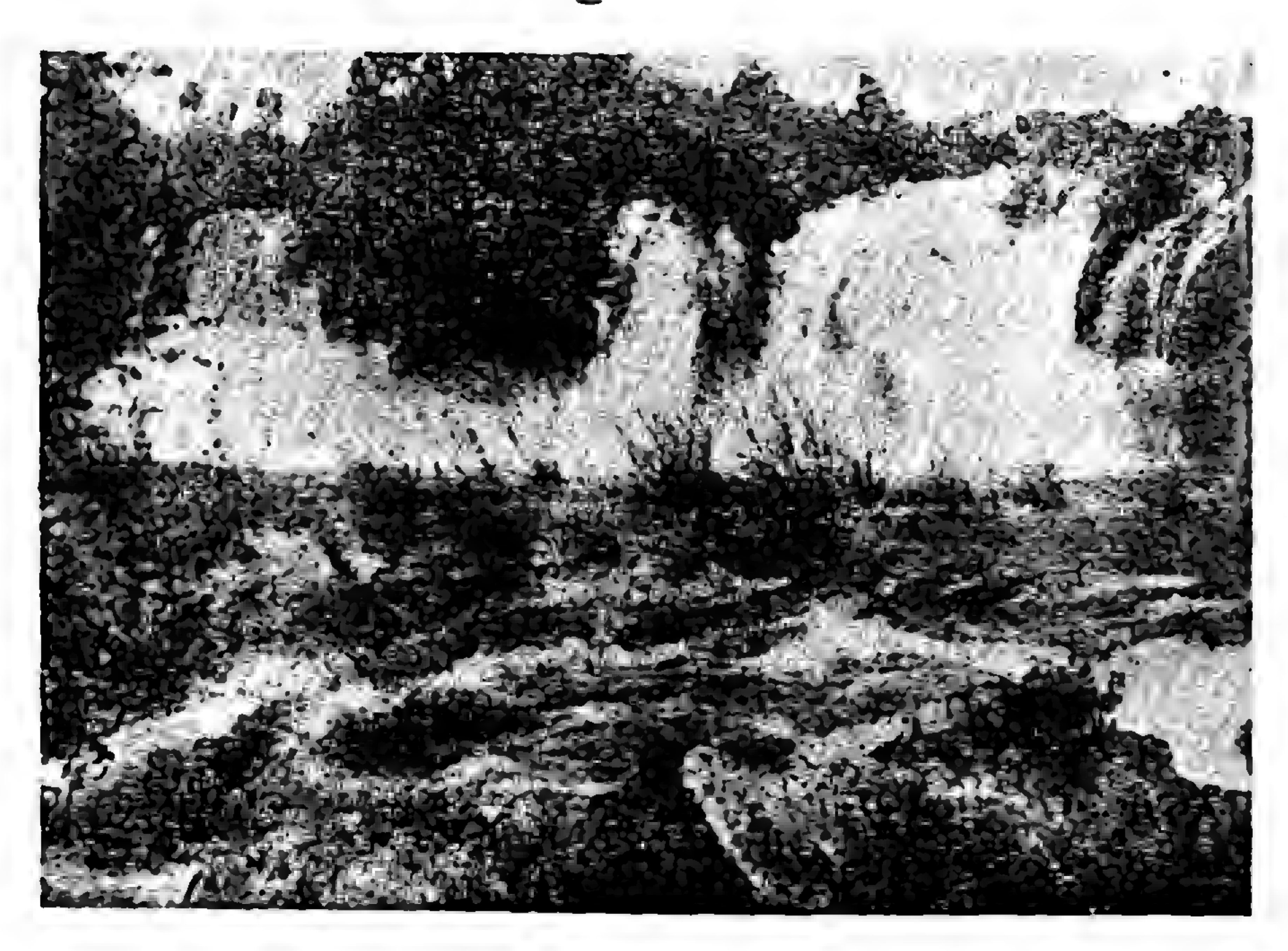
هذا ، وما زالت فى قلب مقاطعات الحبشة يدفع ملوكها الجزية ويحتفظون بلقب الملكية ، مع أن أراضيهم قد صارت منذ قرنين ولايات تابعة للسلطة المركزية فى أديس أبابا ؛ من هؤلاء حكام الأقاليم الواقعة على ساحل البحر أو القريبة منه ، ويطلق عليهم عادة اسم (بهر ميدير) أو مدير البحر ، فهم يحتفظون بألقابهم الملكية القديمة ، ولكنهم لا يحكمون إلا بمشيئة النجاشى وتبعاً لأوامره ، كما يجوز عزلهم وتولية آخرين مكانهم .

وهناك فريق من الحكام يسمى كل منهم بالرأس ولا يستطيع مغادرة أراضيه إلا بأذن من الإمبراطور ، فإذا استدعى أحدهم إلى قصر النجاشى اصطحب جميع أفراد أسرته وحمل متاعه وأمواله ؛ فقد لا يعود إلى بلاده مرة ثانية !

ويقول الفاريز إنهم حينما يتلقون الأمر بالحضور إلى أديس أبابا ، يرحلون حتى يبلغوا أحد أطراف المدينة ، حيث يضربون خيامهم ويخلعون ثيابهم ، إلا ما يستر العورة ، حتى يحدد لهم موعد المثول بين يدى



شلالات ومنابع أنهار



الطبيعة العذراء فى الحبشة !

الإمبراطور ، وقد يطول بهم الانتظار أشهراً قبل أن يقفوا على سبب استدعائهم ؛ فإذا ما حل الميعاد ، سار الرأس وأهله حفاة خاشعين إلى القصر ، حيث يتقرر مصيرهم ، فإما أن يحظى الرأس بالرضا السامى ، فتقام الأفراح والليالى الملاح ، وإما أن يتلى عليه مرسوم العزل ، ولا معقب عليه ، فيتقبله دون أن ينبت ببنس شفة !

ويتولى كل رأس قيادة الجنود الذين يعسكرون فى أراضيه ، كما يتحمل نفقاتهم ؛ وعليه أن يجبى المكوس ويؤدى الجزية التى يفرضها النجاشى .

وقد شهد الفاريز حفل أداء الجزية ، ورأى حاكم ولاية جوجام يتقدم حاسر الرأس عارى الصدر حاملا صرة من الذهب ، ثم يقف فى البهو بعيداً عن العرش ثم يصيح قائلا : يا صاحب الجلالة . . .

فيقال له : من أنت ؟

فيقول : خادمك المطيع الذى يسرج بغلتك ولا يأبى أن يؤدى لك خدمة مهما كانت وضيعة ؛ وقد جئت لسيدى بما أمرنى به !

فيقال له : تقدم !

فيسير راكعاً حتى يلمس جبينه أسفل درجات العرش ، فيضع الصرة الرمزية تحت قدمى الملك .

ويقول الفاريز إن أتباع الحاكم يمرون فى هذه الأثناء برحبة القصر حاملين الأقمشة القطنية الرفيعة وأكياس الذهب الذى يقدر وزنه بنحو ٣٠ ألف أقة محمولة على ظهور الإبل والبغال والحمير .

ويضيف الفاريز أن الأحباش يتبادلون السلع ويستخدمون فى المقايضة قضباناً من الملح وأخرى من الحديد الذى كان السكان يتفننون فى صقله ليتخذوا منه حراباً ومدى .

وكانت إيرادات النجاشى فى ذاك الحين تزيد كثيراً على نفقاته ، فطعام الجيش وسائر حاجياته كان يتحملها الرءوس والحكام ، والرأس الذى لا تعسكر فى أراضيه حامية من الجند ، كان يحضر إلى العاصمة حاملا نصيبه من النفقات عيناً .

وكان النجاشى يقطع أعيان الدولة وسادتها النبلاء أرضاً ، كما كان بعض الأعيان يحبسون بعض الأوقاف على الكنائس والأديار ليعيش رجال الدين من ريعها ؛ وفيما عدا ذلك كان الولاة والحكام يؤدون ما عليهم من جزية للإمبراطور الذى كانت نفقاته قاصرة على أهل بيته وحاشيته وأتباعه وحرسه الخاص . وكان يتنازل بين حين وآخر فيرسل هدية إلى أحد الحكام إعراباً عن رضاه عنه ؛ أما الهدايا التى كان يبعث بها إلى الملوك فكانت من الفخامة بحيث تلائم أقدار المهدى إليهم ، وتكاد تكون مساوية فى قيمتها لما يهديه إليه هؤلاء الملوك ، اللهم إلا سلاطين مصر وبطارقة الإسكندرية الذين كانوا يتلقون منه الهدايا القيمة النادرة دون أن ينتظر منهم إلا أن يعينوا له مطراناً جديداً .

وما تبقى بعد ذلك من الإيرادات كان يتكدس فى كهوف ومغارات لا يعلم أماكنها إلا أقرب المقربين إلى النجاشى وأكثرهم حظوة لديه ؛ وقد كاشف بيدرو دى كوفيلهام صديقه الفاريز بأن ملك الملوك يودع أحد

الكهوف القريبة من داره مقادير من الذهب تكفى لشراء الأرض وما عليها. وكان يضيف إلى هذا الكنز مزيداً من الذهب عاماً بعد آخر دون أن ينفق منه شيئاً . . .

ولم تكن حدود المملكة فى ذلك الحين معروفة ؛ وفى ذلك يقول الفاريز إنها كانت تمتد بحراً إلى ميناء سواكن ، ولا يعرف أحد مدى امتدادها فى باطن أفريقيا ، أى فيما وراء ممالك تيجر وأمهرا وأنجوت وشوا وديمبيا الواقعة على ساحل بحيرة تسانا .

وقد شهد الفاريز سفارة أوفدها ملك النوبة إلى النجاشى ليرجوه أن يرسل إليه بعض رجال الدين ، فاعتذر النجاشى بأنه لا يستقبل منهم إلا عدداً محدوداً من مصر ، وأن مطران الحبشة ليس له حق الرسامة ، فعلى أخيه ملك النوبة أن يلجأ إلى كنيسة الإسكندرية فتجيبه إلى ما يطلب ...

وكانت النتيجة أن ضعفت المسيحية فى مملكة النوبة ، فتقلص سلطان عاهلها ، وتوالت غارات المغيرين عليه وهو عاجز عن صدها ودفع البلاء عن رعاياه ، إلى أن انهار ملكه ونشأت على أنقاضه مملكة سنار الإسلامية .

ولم يكن للنجاشى فى ذلك الحين عاصمة واحدة ، بل كان يجرى التتويج فى العاصمة القديمة (أكسوم) ، ثم يتنقل فى مختلف البلاد على هواه ؛ إذ كان له فى كل بلد قصر ، إذا حل فيه صارت المدينة عاصمة الملك حتى تستهويه مدينة أخرى فينتقل البلاط إليها ؛ فإذا ما حل بأرض ليس فيها قصر يليق بمقامه ، أقيمت خيام كبيرة ، إحداها للملك

وزوجاته وأطفاله ، وغيرها لأداء الصلوات وإقامة الشعائر الدينية ، وثالثة يقضى فيها الإمبراطور بين رعاياه ويفصل فى المنازعات .

وكثيراً ما كان النجاشى يسافر وحده متنكراً ، فيمتطى بغلا يحيط به ستة من الغلمان ، يحمل اثنان منهم المظلة الملكية ، ويمسك اثنان آخران بمقود البغل ، ويسير الأخيران وراء الركب . . .

ويمتاز ملوك الحبشة فى ذلك العصر بالنسك والتقشف ، وكان معظمهم يعيش فى عزلة منطوياً على نفسه ، يقضى الساعات الطوال فى التأمل والعبادة ؛ فإذا ما خيم الليل انتقل الملك إلى جناح الحريم ، حيث تعيش الحظايا والزوجات معاً ، وحيث تقام حفلات طرب ورقص بدائية....

وكان ملوك الحبشة ، كملوك المسلمين ، يستخدمون فى قصورهم غلمانا من غير دينهم ، ممن كانوا يقعون فى الأسر أثناء الحروب ، أو ممن يولدون لآباء من الأسرى ، فيحولونهم إلى النصرانية ، فإذا ما أظهر أحدهم نبوغاً ، واكتسب ثقة سيده ، انضم إلى الحرس الإمبراطورى الخاص ، أو أسند إليه منصب خطير فى الدولة ؛ وهكذا كان النجاشى محوطاً دائماً بفريق من الموظفين الذين نشأوا فى كنفه وتدرجوا فى مناصبهم تحت عينيه ، حتى إذا بلغوا أعلى المناصب اختار من بينهم اثنين يتوليان الوزارة والقيادة العليا ، واثنين آخرين يتوليان القضاء ، ثم خامساً يتولى أعمال الأمين الخاص .

أما القضاء فكان بدائياً ناجزاً ، ويتولاه فى العادة رجلان يوفدهما النجاشى إلى كل حاكم من حكام الولايات ، فيفصل أحدهما فى القضايا

ويقوم الآخر ، على حد تعبير الفاريز ، بأعمال محرر العقود .

ويفصل القاضى فى المنازعات الطفيفة ولا معقب لحكمه ، أما فى القضايا الكبيرة أو المعقدة فيجوز الاستئناف أمام حاكم الولاية نفسه ، كما يجوز أن يرجع حاكم الولاية إلى النجاشى .

أما محرر العقود فيقرر ما إذا كان الحكم قابلا للاستئناف ، وفى هذه الحالة يتولى هو نفسه تحويل القضية على الحاكم ، أو يشير عليه بالرجوع إلى النجاشى .

ويظل المتهم مقيداً بالأغلال فى السجن حتى ينظر فى أمره ويصدر الحكم ببراءته ، ويتعين على أهل السجين أن يحضروا طعاماً له ولحارسه ، إذا كان متهماً بجريمة ؛ أما إذا كان سجيناً بناء على طلب أحد ، فإن على الشاكى أن يقدم الطعام له ولسجانه ، فإذا لم يفعل جاز للسجين المطالبة بإطلاق سراحه .

وكانت العقوبات عديدة متنوعة ، بعضها وحشى كبتر الأعضاء ونزع الأظافر ، وتعد هذه الأخيرة عقوبة طفيفة عادية . . .

أما المجرمون السياسيون فكان مصيرهم النفى إلى الأصقاع الجبلية البعيدة ، وقلما كان المتهم يعود من منفاه حياً ، فقد جرت العادة أن يظل فى المنفى حتى يموت !

وأما عقوبة الجلد فكانت فى ظاهرها أكثر وحشية مما هى فى الحقيقة. وكان المألوف أن يطرح المتهم أرضاً وهو موثق الذراعين والقدمين عارى الظهر ، وتنهال عليه السياط ؛ ولكن الضربات كثيراً ما تنزل على الأرض

فلا يصيبه منها إلا القليل ، وقد لا يصيبه منها شيء ، على حسب الأوامر التى يتلقاها الجلادون !

ويقول الفاريز إنه شاهد فى بعض الأحوال قضاة يطرحون أرضاً ويجلدون لأنهم حكموا بما لا يرضى الله والكنيسة ، أو لثبوت تهمة الرشوة عليهم ، فإذا ما نالوا جزاءهم عادوا من جديد يحكمون بين الناس ، دون أن يخدش الجلد كرامتهم !

وفى الحبشة تقليد عجيب يقضى بإبعاد جميع الذكور من الأسرة الملكية الحاكمة ، فيما عدا النجاشى وأولاده وأحفاده ؛ كما جرى العرف على ألا يتولى المناصب الكبرى أو الشرفية إلا أبناء الظهور دون أبناء البطون ؛ وبما أنه لا يجوز بأى حال أن تطالب بالعرش بنات النجاشى أو ذراريهن ، فانهن وأولادهن يعيشون أحراراً ولا يبعدون إلى المناطق النائية كغيرهم من أعضاء أسرة الملك !

وقد روى الفاريز أنه شاهد ذات يوم فى بلاط النجاشى راهباً يخفى رسالة قيل أن أحد أولاد عمومة الإمبراطور قد حمله إياها ليرفعها إلى البرتغاليين ليحرروه من إساره ، فلما علم النجاشى بهذا التدبير ، أمر بأن يؤتى بالراهب وحراس الحصن الذى يقبع ابن عمه وراء جدرانه ، وجلد الجميع بالسياط حتى قضى عليهم !

ولا يعرف أحد على سبيل التأكيد منشأ هذا التقليد ، بيد أنه يقال إن أول من أخذ به إبراهام ، أول ملك مسيحى فى الحبشة . كما تروى الأساطير أن ملكة النوبة الوثنية التى سحقت جيوش النجاشى فى

القرن العاشر ، استولت على المنطقة الجبلية التى كانت منفى للأمراء ، وقضت عليهم جميعاً إلا طفلا صغيراً نجا من المذبحة بأعجوبة ، وكان أحد أحفاده (يوكو نو أملك) الذى أسترد العرش للأسرة السليمانية .

وقيل أن بيدا ميريام أحد أحفاد هذا الملك ، — وقد حكم من ١٤٦٨ إلى ١٤٧٨ ميلادية — هو الذى أعاد هذا التقليد الذى كان سارياً حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم اندثر نهائياً إبان الحروب الأهلية التى اشتعلت حينداك فى الحبشة .

السفارة البرتغالية الأولى

كان استقبال النجاشى لأول البعوث البرتغالية ودياً فى جملته ، ثم ارتفعت درجة الحفاوة بالضيوف عندما علم جلالته أن أعضاء البعثة مسيحيون ويمثلون أخاً مسيحياً ، فأسبغ عطفه ورعايته على الفاريز ، وراح يستفسره عما غمض عليه من شئون الدين ، ثم رجاه أن يطلعه على ما لديه من كتب الشرح وسير القديسين فى الغرب ؛ ولم يكن الفاريز متضلعاً بالقدر الذى يروى غلة الإمبراطور ويفسر له ما بين المذاهب المسيحية من فروق ، فجعل همه الأكبر أن يحصر المناقشة حول موضوع سيادة البابوية وضرورة خضوع كل مسيحى للتعاليم الكاثوليكية ، والمطابقة بين شعائر الدين المتبعة فى روما والشعائر التى تتمسك بها الكنيسة الحبشية. . . .

ولقد أثمرت هذه المناقشات التى دارت بين النجاشى والفاريز ، فعهد إليه النجاشى أن يحمل إلى البابا كتاباً يعلن فيه تمسكه بالمذهب الكاثوليكى .

أما من الناحية السياسية فإن المفاوضات التى جرت بين النجاشى وسفراء البرتغال لم تأت بثمارها المرجوة ، ولعل هذا راجع إلى تفاهة الهدايا التى قدمتها البعثة ، وإلى تعالى رئيس البعثة واستكباره ، وهو أمر ترك أسوأ الأثر فى نفس النجاشى .

وقد وقع أعضاء البعثة إلى ذلك فى خطأ كبير ؛ إذ أطلعوا ملك الملوك على خريطة ظهرت فيها أملاك الكاهن حنا بصورة مبالغ فيها إلى حد بعيد، فى حين ظهرت ممالك أوربا ، ومنها البرتغال ، ذات رقعة محدودة! فكان ذلك سبباً لزعزعة ثقة الإمبراطور وانهيار آماله فى أخيه ملك البرتغال وسلطانه ؛ فاقترح أن يشترك ملوك فرنسا وإسبانيا والبرتغال فى حرب صليبية يشنونها على جيرانه المسلمين ؛ ولم يكن البرتغاليون يسعون إلى مثل هذا الهدف ، فاعترض رئيس البعثة محتجاً بأن كلا من هؤلاء الملوك الثلاثة يتحين الفرصة لتوسيع رقعة أراضيه على حساب الآخرين ، وأنهم ليسوا على وفاق فيما بينهم ؛ فأحدث هذا الاعتذار أثراً عكسياً فى نفس الإمبراطور الذى أعرب عن بالغ أسفه لهذه الحال التى لا يرضى عنها مسيحى مؤمن ، وقال إنه لو كان بين جيرانه ملك مسيحى لاصطفاه خلا وفياً وأنزله من نفسه منزلة الشقيق !

وعلى الرغم من هذه المؤثرات العاطفية ، وافق النجاشى على النزول عن ميناء مصوع ليكون قاعدة بحرية للبرتغال فى طريقهم إلى الهند، ثم تطرق الحديث عن زيلع وسواكن ، فوعد النجاشى بأن يقدم للبرتغال عوناً من الرجال والمؤونة فى نظير أن يبعثوا إليه عدداً من أرباب الحرف والفنون والصناعات اليدوية ، من بنائين ونجارين وحدادين وأطباء ومن إليهم ، كما طلب كمية من معدن الرصاص ليغطى بها أسطح الكنائس حتى لا تصيبها المؤثرات الجوية بالتلف . . .

ولما حان موعد رحيل البعثة ، حملها الإمبراطور كتاباً يعتبر

الوثيقة الدبلوماسية الأولى فى تاريخ الحبشة ، وقد دونت باللغات الحبشية والعربية والبرتغالية ، واشترك فى تحرير النص البرتغالى كوفيلهام والفاريز وكاتب البعثة ، ثم وضعت كل نسخة منها على حدة فى كيس من الحرير الموشى بالذهب .

وفيما يلى مجمل هذه الرسالة الملكية :

« باسم الله الأب الذى لا أول له ولا آخر ، وباسم الابن الذى لا تراه العين إلا كما ترى وميض الكواكب فى بهيم الليل فتهديها إلى سواء السبيل فى عرض البحار ، والذى أنجبته السيدة العذراء طاهرة الذيل دون أن يمسها بشر أو يعقد زواجها ، وباسم الروح القدس التى تحلق فى علياء السماوات وتحيط بجميع الأسرار ؛ آمين .

« هذه الرسالة صادرة عن نجور العذراء (اسم النجاشى عند تعميده) داود ، ملك الملوك ، حبيب الله ، وحامى الدين ، حفيد داود بن سليمان ، إمبراطور إثيوبيا ورأس ملوكها ، وسيد أمراء شوا وكافات وفاتيجوار وجوجام وأمهرا وباجاميدرسى ودامبيا ؛ ووريث ملك سبأ ، وسيد الأقطار الممتدة حتى حدود مصر .

« إلى النور الساطع والملك القادر إيمانويل ، الفاتح بإذن الله ، وحامى المذهب الكاثوليكى ، أصديق المسيحيين الوفى ، وعدو الكفرة والوثنيين ، سيد أفريقيا وغينا وصاحب البحر الأحمر ، وقاهر العرب والفرس والهنود . . .

« السلام عليك ، ورحمة الله تنزل على قلبك ، أيها القوى بدين

الله يسوع المسيح ، يا من تنقض على أعراب الأندلس بلا سيف ولا درع فتطردهم طرد الكلاب . . .

« والسلام على عقيلتك خادمة العذراء ، أم مخلص البشر ، والسلام على أولادك وأهلك أجمعين .

« والسلام على ربابنة سفنك التى تذرع البحار السبعة منشورة الشراع خافقة الأعلام حليفة النصر »

هذه هى مقدمة الرسالة ، أما موضوعها فسرد للسفارات التى سبق أن وطئت أرض الحبشة منذ عهد ماتيو ، ثم شكر على الصلبان الذهبية والهدايا الفاخرة التى جاءته من أخيه ملك البرتغال ، ورجاء ملح بألا يهدأ له بال حتى يستولى على مدينة القدس الطاهرة ، ثم إشارة أخيرة إلى صفات الكمال والعلم الواسع التى يتحلى بها أعضاء السفارة البرتغالية . . .

أما ما عدا ذلك من تفاصيل الاتفاق الذى عقد بين الطرفين فلا يستغرق من الرسالة الملكية أكثر من ستة أسطر ليس عليها من مزيد .

الفتوحات الإسلامية

والبعوث البرتغالية

وكان فى الأفق وقتذاك سحب متكاثفة تنذر بعاصفة مجتاحة ؛ فقد فتح السلطان سليم مصر خلال عام ١٥١٦ ، وأخضع أهل الحجاز ؛ فأحدثت سيطرة العثمانيين على حوض البحر الأحمر تغييراً شاملا فى الموقف السياسى ، وكانت هذه الفتوح دماء جديدة تغذى روح الجهاد الدينى الكامنة فى نفوس المسلمين ضد أعدائهم ؛ كما أتاحت الفرصة أمام أمراء المسلمين ليدفعوا رعاياهم إلى ذلك الجهاد ، مستعينين بما كان لدى الأتراك من أسلحة نارية حولت العصابات المحاربة إلى قوات نظامية تتوسل فى غزواتها بأحدث الأسلحة التى عُرفت آنذاك .

ولم يكن الأحباش والبرتغاليون يدركون بدقة مدى الخطر الجديد الذى يتهددهم ، فظلوا ماضين فى تنفيذ ما رسموا من خطة ؛ فها هو ذا النجاشى يطلب إلى البرتغاليين أن يمدوه بعدد من مهرة الصناع لتزويد جيشه بالقسى والنبال ، ثمناً للقواعد البحرية التى وافق على منحهم إياها ؛ وها هى ذى البعثة تتلكأ فى عملها فتقضى زهاء ست سنين فى عاصمة النجاشى ، ثم لا يكاد أعضاؤها يبحرون من ميناء مصوع حتى تنقض جيوش أحمد بن إبراهيم الغازى ، على الجيوش الحبشية ، فتصليها ناراً

حامية من بنادقها حتى تمزقها شر ممزق ، ويختلط حابلها بنابلها ، وتتبعثر فلولها كالهباء تذروه الرياح ؛ ثم تدخل جيوش الأمير المسلم أرض الحبشة فتدمر قلاعها ، وتستولى على كنوز الإمبراطور ، ثم تنقض إحدى الفصائل على منفى أمراء الأسرة المالكة فيعمل رجالها السيوف فى رقابهم...

وتروى القصص الشعبية الحبشية أن ٩٠٪ من الأهلين تركوا المسيحية ودخلوا فى دين الإسلام ، ولم يبق على قيد الحياة من الأسرة المالكة سوى النجاشى ونفر قليل من رجاله المخلصين ، اعتصموا بالمناطق الجبلية الوعرة وواصلوا الجهاد . . .

وفى هذه المحنة يتجه النجاشى لبنا دينجل بتفكيره نحو أصحابه البرتغاليين ، لعلهم يمدون له يداً ؛ فيوفد إلى بلادهم شخصاً مغموراً ، هو جوان برموديز ، كان يعمل مساعداً فى البعثة واستبقاه النجاشى رهينة لديه حتى يعود السفير الحبشى إلى عاصمة البلاد . . .

فلما مثل جوان برموديز بين يدى ملك البرتغال وقص عليه ما جرى الملك الحبشة ، أخيه فى الدين ، اغرورقت عينا العاهل البرتغالى ، وقرر أن يجرد حملة من أملاكه فى الهند لنجدة لبنا دينجل ، غير أن وسائل الوصول إلى الحبشة لم تكن ميسرة فى تلك الأيام . . .

وبينما كان البرتغاليون واقفين مغلولى الأيدى ، كان العثمانيون يفتحون اليمن ، ويخضعون أمراءها ، ويقيمون على طول ساحلها حصوناً منيعة ، لا سيما ميناء عدن ؛ فأصبح للأسطول التركى السيطرة التامة على مياه البحر الأحمر خلال عام ١٥٣٨ .

غير أن البرتغاليين قاموا بغارة انتقامية على السويس ، ثم أنزلوا فى ميناء مصوع أربعمئة جندى بقيادة خريستوف بن فاسكو دى جاما الرحالة الشهير . ولكن لينا دينجل كان قد مات فى هذه السنة وخلفه على عرش الحبشة ابنه كلوديوس (إقلاديوس) الذى استقر فى أحد الأصقاع الجنوبية النائية بولاية شوا . . .

وكان فى استقبال الحملة الملكة الأم التى كانت وقتذاك مختبئة فى إحدى القلاع المنيعة ، فأرشدت قائد الحملة إلى الطريق للاتصال بابنها ، إلا أن الأمطار عاقت سير الحملة حتى شهر ديسمبر ؛ ثم واصلت الزحف نحو الجنوب ، فقطع الطريق عليها أحد الأمراء المسلمين ، واشتبك الفريقان فى عدد من المعارك ، غير أن الحرب ظلت سجالا بينهما ، إلى أن حل موسم الأمطار التالى فانسحب الأمير المسلم إلى سهول دنكال دون أن ينال منه البرتغاليون منالا أو ينال منهم ؛ ولكن الأمير المسلم لم ييأس ، فأرسل إلى قائد أحد الحصون العثمانية الواقعة على الساحل المقابل فى اليمن (قلعة زبيد) هدايا جزيلة ، كما أرسل إليه عدداً من أسارى الأحباش ذوى المكانة الرفيعة ، منهم ميناس أخو النجاشى ، فكان ردّ القائد التركى على هذه الهدية الكريمة أن أرسل قوة من حملة البنادق قوامها ٩٠٠ رجل ، انضمت لجيوش الأمير أحمد ، فما زالت تتعقب البرتغاليين حتى قطعت دابرهم وأفنتهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم قائد الحامية خريستوف دى جاما ، كما استولت على جميع ما كان لدى البرتغاليين من الأسلحة النارية . . .

ولما استتب الأمر لأحمد ، أخلى سبيل الأتراك وعاد مظفراً على رأس جيوشه إلى ولايته القريبة من بحيرة تسانا . . .

ولكن النجاشي كان قد التف حوله ثمانية آلاف مقاتل ، ونصف ألف من الفرسان ؛ وأخذ أحد البرتغاليين الذين نجوا من معركة الإبادة يصنع البارود من القار والكبريت الذى يوجد بكثرة فى هذه الأنحاء ، فلما توفر لجيش النجاشي إقلاديوس قدر صالح من الذخيرة زحف ، على أراضى الأمير أحمد . فكانت المفاجأة . والتحم الجيشان ؛ وكان أحمد على رأس إحدى الكتائب ، فأصيب فى مقتل . وما لبث العساكر الصوماليون أن ولوا الأدبار ، وظل الأتراك يقاومون حتى مات أكثرهم ، ولم ينج من حملة البنادق سوى أربعين مقاتلا . . .

وتحولت الريح بعد هذه الهزيمة . فأصبح للنجاشي جيش نظامى يجيد استخدام الأسلحة النارية الحديثة التى كان يعتمد عليها الأمير أحمد فى إحراز النصر . . .

أما البرتغاليون القلائل الذين ظلوا على قيد الحياة فقد رجاهم النجاشي أن يظلوا فى خدمته ويعيشوا معززين مكرمين بين إخوانهم فى الدين ، فأذعنوا لإرادته واختلطت ذراريهم بأهل البلاد جيلا بعد جيل حتى اندمجت وتأقلمت ؛ واسترد النجاشي جميع الأراضى التى فقدها فى حروبه مع المسلمين ، كما وطد سلطانه ونفوذه فى الولايات المتاخمة للحدود بعد أن كتب له النصر على سكانها الوثنيين .

وأخذ النجاشي يعمل على إصلاح ما أفسدته الحروب ، ودعم

أركان السلام ، فأعاد بناء الكثير من الكنائس التى تخربت ، وأمر بنسخ الكتب والمؤلفات التى أحرقت ؛ ولكنه ما لبث أن ذاق مرارة الهزيمة ، فى أواخر عهده ، على أيدى العثمانيين الذين احتلوا ميناء مصوع ، وأقاموا فيه حامية كبيرة تحت قيادة أحد الباشوات ؛ ولم يكن النجاشى يأمل فى هذه المرة أن يأتيه المدد أو تسعفه النجدة من جانب أحلافه البرتغاليين .

هذا ، وقد حدث فى عهد النجاشى إقلاديوس أن ادعى برموريز أن بابا روما قد عينه مطراناً للحبشة ، وكان النجاشى فى ذلك الحين فى أشد الحاجة لمعونة البرتغاليين الذين كانوا يؤازرونه فى حروبه مع المسلمين ، فامتثل للأمر الواقع وسكت عن ادعاءات برموديز ، إلى أن كتب له النصر فأبعده إلى أحد المعاقل النائية . وأقطع من تبقى من البرتغاليين مساحات شاسعة من الولايات الجنوبية يحيون فيها حياة كريمة ويصيبون منها رزقاً حسناً .

وأخيراً تمكن برموديز من الفرار إلى البرتغال ، حيث عاش بعد ذلك سنوات ، ووضع كتاباً عن ذكرياته فى الحبشة . ملأه بالأباطيل والترهات ؛ وكان هذا المؤلف حتى وقت قريب يعتبر — مع الأسف — من المراجع التاريخية التى يعتمد عليها الباحثون فى شئون الحبشة ، إلى أن وضحت الحقائق وأثبتت الوثائق التى تحتويها محفوظات الفاتيكان أن ذلك الأفاق لم يجتمع مرة واحدة بالبابا ، وإنما تلقى بركات قداسته فى أثناء عودته من البرتغال حين أرسله النجاشى لطلب نجدات من مليكها .

محاولات الجزويت لكثلكة الحبشة

الأب أوفيدو :

أثارت الأنباء الواردة من الحبشة اهتمام جماعة الجزويت ، فرأت أن تبشّر بالكاثوليكية بين سكان ذلك البلد ، وكان البابا معارضاً فى ذلك ؛ ولكن الملك يوحنا الثالث ، عاهل البرتغال، أشار عليه بإيفاد بطريرك رومانى، فقرر أن يسند هذا المنصب الخطير إلى جان باريتو ، على أن يعاونه اثنان من المطارنة ، هما أوفيدو وكارنيرو ، حتى إذا مات خلفه أحدهما .

وأبحرت البعثة إلى الهند حاملة إلى نائب الملك هنالك أمراً كتابياً من الملك بأن ترافق البعثة إلى الأراضى الحبشية قوة من الجنود قوامها ٥٠٠ رجل .

غير أن نائب الملك كان يعلم علم اليقين أن إقلاديوس ، إمبراطور الحبشة ، يأبى أن يزاول الكاثوليك نشاطهم على حساب الأرثوذكسية ، وخاصة إذا كان هؤلاء المبشرون يعتمدون على قوة عسكرية ، فأرجأ تنفيذ الأمر الملكى بدعوى إعداد الحملة ، وفى أثناء ذلك مات البطريرك باريتو قبل أن تكتحل عيناه بمرأى رعاياه الجدد ، واقتصر الأمر على سفر أوفيدو يعاونه عدد من رجال الدين .

ولعل القارئ لم يزل يذكر تصرفات الدعيّ برموديز التى أشرنا إليها فى الفصل السابق ، تلك التصرفات التى أوغرت صدر النجاشى على الكنيسة الكاثوليكية ، لما لمسه من حرص أتباعها على السيطرة وإملاء الإرادة .

ولسنا نجد تفسيراً لقبول النجاشى لبنادينجل الاعتراف بسلطة البابوية فى روما ، إلا بأنه مجرد تسليم من جانبه بأن البابا هو رأس الديانة المسيحية فى جميع أقطار الأرض ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن ليرتضى أن يعين البابا بطريركا فى الحبشة بدلا من المطران الذى تجرى رسامته فى الاسكندرية .

وكيف يقبل النجاشى ، صاحب السلطان المطلق ، أن يقف مطران مهما يكن مصدر سلطته الكنسية ، حائلا دون تنفيذ إرادته !

نعم ، من حقه إسداء النصح ، وتقديم المشورة ، ولكن ليس له أن يصدر الأوامر إلى المليك ، كما حاول من قبل برموديز . . .

وإذن ، فقد كان لدى النجاشى أسباب تدعوه إلى الرغبة عن تعيين بطريرك رومانى فى بلاده ، رغم ميوله إلى الكاثوليكية .

وكان لبنادينجل عميق الإيمان ، واسع الاطلاع ، ومع هذا فإن بعثة الجزويت لم تكد تصل إلى الحبشة وعلى رأسها أوفيدو ، حتى رفض الملك تنصيبه بطريركا كاثوليكيا ، محتجاً بأن لديه رسولا موفداً من قبل كنيسة الإسكندرية التى يتبعها ؛ على أنه أوسع صدره لرجال الدين الجزويت ، وقبل أن يقارعهم الحجة بالحجة ، فإما أن يقتنع فيؤمن

بما يقولون ، وإما أن يقتنعوا فيكفوا عن التبشير .

ومما يذكر أن هذا الجدل قد تناول البدع المكروهة فى الدين وضرورة اجتثاث جذورها من نفوس السكان ، فكان رد النجاشى أن الإمبراطور إقلاديوس وضع فى ذلك الشأن بحثاً ، يعتبر دستوراً دينياً ، ويقضى بألا يحتفل الأحباش بيوم السبت على غرار اليهود ، وإنما يحق لهم أن يقدموا القرابين لاكتساب رضى خالق السماوات ؛ وأما الختان فعادة شعبية لا فرق بينها وبين الندوب التى يتزين بها أهل النوبة ، أو خرق الأذن الذى يتجمل به أهل الهند ؛ وأما أن أكل اللحم حرام ، فذلك أمر متروك للمؤمن الذى يمتنع عن أكل الضأن أو السمك أو الخنزير ، كلٌ حرٌ فيما يأكل ، ولا حرج فى الدين على أمثال هذه التوافه . . .

وهكذا أسقط فى أيدى الآباء الجزويت ، فكفوا عن الجدل ، على أن النجاشى سمح لرعاياه البرتغاليين بأن يمارسوا شعائر المسيحية على المذهب الكاثوليكى .

ثم خلفه على عرش الحبشة أخوه ميناس ، وكان قد وقع فى أسر الأمير أحمد فأهداه كما قدمنا إلى الحاكم التركى فى زبيد ، ثم فك أخوه الإمبراطور رقبته ؛ وكان من أشد المتحمسين للأرثوذكسية ، عنيفاً جباراً ، ذاق مرارة الأسر فزاد طغياناً وقسوة ؛ فلما استوى على العرش حرم على رعاياه التردد على كنائس الكاثوليك ، فحاول أوفيدو أن يثنيه عن هذا الأمر مبيناً أن فى ذلك ضلالا مبيناً ، فكاد النجاشى يقضى عليه بيديه ، لولا شفاعة بعض المقربين ، فأمر بإبعاده إلى قلعة

قاصية ، وهدده بالقتل إذا ما عاد إلى مثل ذلك !

وزاد من حفيظة الإمبراطور على أوفيدو أن ثار أحد حكام الولايات الساحلية ، بتأييد من البرتغاليين ، فظن أن لأوفيدو يداً فى ذلك العصيان . . .

وقد أرسل النجاشى حملة لتأديب الحاكم ، فما كان منه إلا أن استنجد بسمير باشا التركى حاكم مصوع ، فنشبت الحرب بين الفريقين ؛ وفى إحدى المعارك مات النجاشى ، فخلفه ابنه سارزا دينجل (١٥٦٣ — ١٥٩٧) ، واستأنف القتال إلى أن كسر شوكة الترك وأحلافهم ، فولى وجهه شطر الجنوب . حيث قضى على قبائل الغالا التى تدين بالوثنية ، وتوغل فيما وراء أراضيها إلى مدى لم يبلغه أحد من قبل . . .

ومجمل القول أن الآراء تضاربت فى الحكم على أخلاق البطريرك أوفيدو ، فقائل يقول إنه كان يكيد للنجاشى ، وإنه هو الذى أشعل نار الثورات والحروب فى الحبشة ؛ وقائل آخر يزعم أنه كتب أكثر من مرة إلى ملك البرتغال يدعوه لإرسال حملة للاستيلاء على الحبشة وطرد الأسرة الحاكمة من أراضيها ؛ فإذا كانت هذه التهم غير ثابتة ، فإنها جائزة ؛ على أن الآباء الجزويت لقوا شدائد كثيرة من تعصب ميناس وحيلولته دون أداء رسالتهم التى يقدسونها ، وهى تحويل الأحباش من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية . . .

وسواء أصدقت الاتهامات المنسوبة إلى أوفيدو أو كذبت ، فإن من المؤكد أن نشاطه اقتصر ، فى عهد سارزا دينجل وفى ظل تسامحه

الدينى على نشر الدعوة الكاثوليكية فى المناطق القريبة فى أكسوم .

وكان أوفيدو فى آخر أيامه محل احترام الجميع وحبهم ، لزهده وعطفه على الأهلين ؛ على أنه يمكن القول إنه أخفق فى أداء رسالته الدينية ؛ إذ أن أقلية ضئيلة هى التى اتبعت تعاليمه ، رغم ما لقيه من تيسير السلطات الحاكمة وسماحتها .

رسالة بابيز التبشيرية :

حقت كلمة الموت على أعوان أوفيدو واحداً بعد واحد ، فلم يبق لأعضاء بعثته أثر فى البلاد .

وكان الأتراك المسيطرون على ميناء مصوع يحولون دون دخول بعوث التبشير المسيحية فى أرض الحبشة ، إلى أن تسلل راهب مارونى عربى الأصل إلى الأراضى الحبشية عام ١٥٩٥ ؛ ولكن أمره ما لبث أن افتضح ، فأخرجه الأتراك عنوة .

وفى هذه الغضون كان بالهند راهب إسبانى يدعى بيتروبابيز ، وكان يبذل جهد الطاقة فى سبيل الوصول إلى الحبشة ، فاتصل بمحض الصدفة بأحد الخصيان المقربين من باشا سواكن ، ولما توطدت أواصر الصداقة بينهما ، ادعى له أن لبعض أصدقائه فى الهند أموالا ورثوها فى الحبشة ، وأنه يخشى وقوعه فى أيدى الترك إذا ما حاول الدخول فى أرض النجاشى ، فيقع فى الأسر ويباع عبداً رقيقاً ؛ فاحتال الخصى وصحبه فى رحلته ، مدعياً أنهما ذاهبان إلى القدس ؛ ثم سأل الحاكم

التركى أن يسمح له بالمرور فى طريقه بميناء مصوع ، لبعض شئون مالية خاصة؛ فلما منحه الباشا جواز المرور ، قدّمه لصاحبه وتمنى له رحلة موفقة ؛ وهكذا نجح تدبير بايبز ودخل الأراضى الحبشية آمناً سالما . . .

وكان بايبز رجلا ذا ثقافة عالية ، بشوشاً لين العريكة ، يعرف كيف تؤكل الكتف ، ويمتاز على سلفه أوفيدو بأنه لم يكن ذا منصب رسمى ، بل كان بسيطاً جم التواضع ، فعكف على دراسة اللغة الأمهرية ، فلم تنقض ثلاث سنوات حتى أتقنها ؛ وكان فناناً ، فدرس الهندسة المعمارية والنجارة حتى أصبح ذا باع طويل فى كلتيهما .

وكان يتحلى بالصبر فلا يستعجل الأمور ، ولم يحاول يوماً أن يتوسل بأحد ليقدمه إلى البلاط كما كان يفعل المبشرون من قبله ، بل قبع فى مدينة فريمونا ، وافتتح مدرسة لتعليم الصغار من أبناء البلاد ، فما لبث أن ذاع صيته وعلا نجمه حتى غدت مدرسته قبلة يتجه إليها أبناء النبلاء والخاصة الذين اتسعت مداركهم ، وأصبح محصولهم من لغة (الجيز) أوسع مما كان يتباهى به رجال الدين الأحباش . . .

وقد استعان بايبز فى بث الدعوة بصلاة كاثوليكية ترجمها إلى لغة الجيز ولقنها تلاميذه .

وكانت الحبشة فى ذلك العهد مسرحاً للدسائس التى كان يحيكها فريقان من الخاصة ، أحدهما يناصر (زا دينجل) ابن شقيق لينا دينجل الذى أوصى بأن يكون ولياً لعهده ، والفريق الآخر يؤازر أحد أبناء

النجاشي المغضوب عليه ويدعى يعقوب .

وقد استعرت هذه الدسائس فى مستهل عهد الراهب بابيز بمدينة فريمونا ؛ ولم يلبث التوفيق أن حالف النجاشي زا دينجل فتولى العرش ، وبعد قليل نمى إليه خبر بابيز ، فأرسل أحد أتباعه يستدعيه للمثول بين يديه .

وجاء الراهب يصحبه اثنان من خيرة تلاميذه إلى القصر ، وكان عدد من رجال الدين الأحباش فى ذلك الوقت بحضرة المليك ، فتناول الحديث بعض شئون الدين ، فإذا بالتلميذين يجادلان العلماء ويدليان بالحجج الدامغة ويعارضان الآراء بأفق متسع وعلم غزير ؛ ثم يليهما بابيز نفسه ، فينطلق لسانه بعظة فى لغة الجيز تنساب إلى قلب الإمبراطور فتهز مشاعره وتثير إعجابه ، فلا تكاد تنتهى الجلسة حتى يدعو بابيز إلى جانبه ، ويكاشفه بأنه قرر أن ويعتنق الكاثوليكية مذهباً ، فيرجوه بابيز أن يحتفظ بعقيدته بين حنايا ضلوعه ، ولكن الحماسة كانت قد بلغت به حداً حمله على إصدار مرسوم بتحريم إقامة قداس يوم السبت ، وتغيير بعض المراسيم الدينية التى تتبعها الكنيسة الحبشية وتتعارض مع المذهب الكاثوليكى ؛ كما كتب للبابا يعلن خضوعه ، وطلب إلى فيليب الثالث ملك إسبانيا والبرتغال يد ابنته لولى عهده ، وناشده أن يبعث إليه بقوة من الجند لمحاربة الكفرة والملحدين . . .

ولكن هذه النزعة الإمبراطورية الجديده لم ترق فى أعين النبلاء ، فشقوا عليه عصا الطاعة ، وأقنعوا البطريرك بأن يذيع رسالة على الشعب

يحله فيها من طاعة الإمبراطور والولاء له ؛ فما لبثت جيوش النجاشى أن اندحرت ، ومات زا دينجل فى أحد المعارك .

وتولى العرش بعده سيسنيوس (١٦٠٧) وكان مثله يعتمد على مؤازرة البرتغاليين ، فأضفى حمايته على بايز واتخذه مستشاراً روحياً ، ثم ما لبث أن اعتنق الكاثوليكية ، ولكنه لم يقع فى الخطأ الذى أودى بسلفه وأطاح بملكه ، فلم يبح بالسر ، بل ظل خمس سنوات يوطد دعائم العرش ويزيل من طريقه المنافسين والمتألبين . . .

وكان أخوه الرأس سيلاس حاكماً على جوجام ، فتحول إلى الكاثوليكية على غرار أخيه ، وساعد جماعة الجزويت على بث الدعوة للمذهب الجديد فى أراضى ولايته .

وبعد قليل أذاع النجاشى على الملأ أن ازدواج طبيعة المسيح حقيقة لا مراء فيها ، فشلحه البطريرك ، ولكن الإمبراطور أرغمه على سحب هذا القرار . . .

واشتعلت نيران الثورة فى وجه سيسنيوس مرتين ، ولكنه أخمدها وقضى على الكثير من أعدائه .

وفى ١٦٢٢ أعلن النجاسى أن دين الدولة الرسمى هو الكاثوليكية ، وشهر بالبطارقة الأقباط .

على أن بايز مات فى غضون تلك السنة ، ففقد فيه الإمبراطور رائده ومشجعه . . .

بعثة الأب منديز :

وقد كتب سيسيميوسن إلى البابا فى روما يطلب إليه تعيين بطريرك كاثوليكى جديد ، فأوفد إليه الفاتيكان بعثة على رأسها الأب الجزويت الفونس منديز ، وكان إسبانيا كذلك ، إلا أنه كان على النقيض من سلفه ، متعسفاً ضيق الأفق ، متعصباً إلى حد المغالاة ؛ فما كاد يمثل بين يدى النجاشى حتى أمر بعقد اجتماع يشهده النبلاء والأعيان وذوو الحيثية فى البلاد ؛ وفى هذا الحفل المشهود اضطر الإمبراطور للركوع أمامه إعلاناً لخضوعه لسلطة البابا فى شخص البطريرك ، وهو موقف فيه مساس كبير بهيبة الملكية . . .

وبعد ذلك شرع منديز فى إدخال تعلايلات على المراسيم الملكية على الوجه الذى طالما نادى به الآباء الجزويت ؛ ثم أوقف جميع رجال الدين حتى يقوم برسامتهم مرة أخرى ، كما زعم أن صيغة التعميد التى كانت تتلى من قبل تنطوى على عبارات لا تمت إلى الكاثوليكية بسبب ، وعلى ذلك يتعين تعميد الأهالى من جديد !

ثم أعلن أن عملية الختان حرام ، وأسبغ بركاته على الكنائس ، وأمر بأن يستبدل بالمذابح المقامة فيها مذابح أخرى على النهج المتبع فى روما ، محتجاً بأن بعض الصور المحفورة فيها لا تمثل القديسين ، ويخشى على رُوّاد الكنائس من الزيغ والانحراف إذا ما تطلعوا إليها .

وقصارى القول أن ذلك البطريرك لم يترك أمراً يسوء رجال الدين

والمؤمنين المحافظين إلا أتاه ؛ وشهد بذلك شاهد من أهله ، فقد ورد فى تاريخ الآباء الجزويت أن حماسة منديز جاوزت حدود اللياقة ولم يراع فيها ذوقٌ ولا مجاملة !

ولقد أثار شعور الاشمئزاز فى نفوس الأحباش حينما أمر بنبش جثة راهب كان يسمو فى نظر مواطنيه إلى مرتبة القديسين ، فأخرج جثته من الكنيسة وألقاها فى الطريق بدعوى أنه لا ينتمى إلى الكاثوليكية ، وهو أمر يعتبر فى نظره كفراً وإلحاداً !

وكان من أثر ذلك كله أن ثارت فى وجهه مقاومات شديدة ، لم تلبث أن انقلبت إلى ثورات اشتعلت فى مختلف أنحاء إثيوبيا ، ولم تكن تعبيراً عن سخط النبلاء فحسب ، بل تعبيراً عن نقمة الشعب أيضاً . . .

وقد أخمد الإمبراطور سيسنيوس هذه الثورات واحدة تلو أخرى ، ولكن مرجل الغضب الشعبى لم يلبث أن انفجر على صورة حرب أهلية استعرت نيرانها فى كل مكان بين أنصار النجاشى وأعدائه . . .

وإذ ذاك أخذ بعض أصحاب الإمبراطور ينصحونه بأن يعلن على الشعب خروجه على الكاثوليكية ، قبل أن يرفع الجيش راية العصيان فى وجهه ، فرأى النجاشى أن يعمل بالنصيحة لتهدئة النفوس الثائرة ، وأعلن الخروج على مذهبه ؛ ولكن منديز صب عليه جام غضبه ، وأمعن فى زجره وتأنيبه ، فلم يبق بعد ذلك فى قوس الصبر منزع . . .

وفى أحد الأيام أذاع الإمبراطور نداء على الشعب جاء فيه أنه أراد

أن يعتنق رعاياه ديناً جديداً ، خال فيه الهداية والرشد ؛ ولكنه كان سبباً فى موت الكثير من الزعماء والنبلاء وأفراد الشعب ؛ ولهذا فهو يحلهم من هذه العقيدة ، ويدعوهم إلى التمسك بدين آبائهم ؛ وليعد رجال الدين الأرثوذكس إلى كنائسهم ، ويقيموا مذابحهم ، ويتلوا صلواتهم المألوفة ؛ ليكون ذلك برداً وسلاماً على القلوب . . .

أما وقد رد شعبه إلى الصراط المستقيم ، واعترف بخطاياه وأبرأ ذمته ، فما كان له أن يظل على العرش ؛ وهذا ما استقر عليه رأيه ، إذ تنازل عن العرش لابنه باسيليدس . . .

أما ماكان من أمر باسيليدس بعد ذلك ؛ فقد علمه رأس الذئب الطائر ، وشهد بعينى رأسه كيف تمرغت سمعة أبيه فى الأوحال على أثر تغيير دينه ، واتباعه وسائل العنف فى إكراه الناس على الدخول فى المذهب الجديد ؛ فسار على سياسة مختلفة تماماً عن سياسة أبيه ، وآثر فى الوقت نفسه التسامح إزاء الكاثوليك ، وترك الحبل لهم على الغارب دون أى ضغط على الأهالى ، على أن يكون كل إنسان حراً فى إتباع المذهب الذى يروق له ؛ إلا أن النعرة الدينية كانت قد بلغت منتهاها ، ولم يكن ثمة سبيل إلى الأخذ بسياسة التسامح ، فكاشف باسيليدس منديز بأن نيته قد استقرت على اجتثاث جذور الكاثوليكية فى الحبشة ؛ فعلى الآباء الجزويت أن يرحلوا عن البلاد فوراً ، وأن يتركوا كل ما فى حيازتهم من أسلحة وذخائر . . .

وغنى عن البيان أنه اتخذ هذا القرار الحكيم لكيلا يدع فرصة

للنبلاء الذين ظلوا متمسكين بمذهبهم الجديد أن يوقدوا نار الفتنة ، إعتماداً على البرتغاليين ، أو أن يستنجد الجزويت بجيش من الخارج . لم يكذب حدسه ، فقد طلب بعض الآباء الجزويت إلى حاكم الهند البرتغالى تجريد حملة قوامها ٤٠٠ رجل لاحتلال سواكن ومصوع ، ثم تنقض على الأراضى الحبشية لإعلاء كلمة الدين . . .

أما منديز وأتباعه المقربون فقد لاذوا بولاية (حنا آ كاى) ، وكان وقتذاك ثائراً على النجاشى ، فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم فى أول الأمر ، غير أنه — خشية غضب الإمبراطور وما يناله من عقابه إذا استبقاهم ، واعتماداً على تأكيدات رسل الإمبراطور بصدور العفو عنه إذا ما قام بتسليمهم — آثر السلامة وتخلص منهم بأن باعهم لحاكم سواكن التركى ، وباعهم هذا بعد ذلك لملك إسبانيا بربح عظيم !

وأما من بقى من الجزويت مختبئاً فى مختلف أرجاء الحبشة ، فقد تعقبهم النجاشى إلى أن قبض على أكثرهم ، وكان جزاؤهم الإعدام بتهمة الخروج على طاعة سيد البلاد . . .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى الفاتيكان ، نسبت إدارة الدعاية هذا الفشل الذريع إلى استبداد الجزويت الإسبان وسوء تصرفاتهم ، فأوفدت ستة من رجال الدين الفرنسيين إلى الحبشة ، وحاول اثنان منهم بلوغها عن طريق مدغشقر ، ولكنهما وقعا فى أيدى الأهالى ، فنهبوا متاعهما وقضوا على حياتهما .

وتسلل اثنان آخران إلى داخل الحبشة عن طريق مصوع ، فما إن

اكتشفت حقيقة شخصيتهما حتى قتلا ومثل الأهلون بجثتيهما .

ولما علم الزميلان الباقيان بما وقع ، آثرا السلامة وعادا من حيث أتيا .

ولكي يضع النجاشي باسيليدس حداً لهذا المجادلات ، عقد مع باشا سواكن اتفاقية تقضي بأن يقطع الباشا رأس كل من تسدل له نفسه النزول إلى البر من رجال الدين الكاثوليك ، في نظير بعض امتيازات تجارية منحه النجاشي إياها . . .

وهكذا طويت هذه الصفحة من جهاد أصحاب المذهب الكاثوليكي لنشر دعوتهم بين سكان الحبشة !

من هذا وغيره تولد الشك في نفوس الأحباش نحو كل ما هو غريب عن ديارهم ، ولم لا وقد أكرموا وفادة هؤلاء الرهبان بادئ ذي بدء ومنحوهم ثقتهم ، ودخلوا في مذهبهم زرافات ووحدانا ، وأحلوهم من قلوبهم موضع التبجيل ، فلما قويت شوكتهم وتوطدت أقدامهم بفضل رعاية النجاشي ومؤازرته ، لم يُبقوا على تقليد ، ولم يراعوا تراثا ، وأعملوا معاول الهدم في كل مقدسات القوم ليقيموا بناء مذهبهم الجديد على الأنقاض ؛ فهل كانت هذه التصرفات إلا وسيلة للتسلط والسيطرة والبغي عن طريق الدين ؟

وكيف غاب عن هؤلاء الآباء الجزويت أن لكل شعب كرامته التي يعتز بها إلى أبعد الحدود ، فلا يرضى المساس بها ولو كان ذلك باسم الدين ؟

لو أن رجال الدين ساروا على نهج بابيز ، فاقتصر نشاطهم على

الناحية الثقافية، وعاملوا الأهلين بالحسنى، لاستطاعوا أن يبلغوا من البلاد غرضاً، ولكنهم أثاروا الريب فى نفوس الأحباش ضد الأجانب، فنجوا بدينهم وباء الدخلاء بالإخفاق . . .

وهكذا تأصلت كراهية الكاثوليكية فى أعماق النفوس، حتى جاء إلى الحبشة، بعد مرور قرن ونصف قرن، رحالة إسكتلندى يدعى بروس، فكاد الأحباش يفتكون به، لولا أنه أقنعهم بأنه ينتمى إلى كنيسة بعيدة عن البابا بعد السماء عن الأرض؛ فنجا بهذه الدعوى من فتك الأحباش!

الحبشة إبان القرن السابع عشر

أورد الآباء الجزويت كثيراً من البيانات عن حالة الحبشة فى ذلك العهد ، وكان من أوسعهم اطلاعاً وأدناهم إلى الحيدة فى أحكامه ، أب برتغالى يدعى بلتازار تيليز ، قام بعد قرار إبعاد الجزويت والتنكيل بمن بقى منهم فى البلاد ، بوضع كتاب وصف فيه دولة الأحباش ؛ وتبدو خيبة الأمل واضحة بوجه عام لمن ينعم النظر فى ثنايا سطور هذا الكتاب ؛ إذ يزعم أن ظهور الكاهن يوحنا وانتشار عدله ، وذيوع ورعه الشديد واستمساكه بأهداب المسيحية ، ما هى إلا خرافات لا تستند إلى واقع ، كما يتهم سلفه الفاريز بالتضليل ورواية الأساطير كما ألقاها الأحباش ، فليست الحبشة فى نظر المؤلف إلا بلداً فقيراً ، وليس أهلها إلا نفراً من المتخلفين عن ركب الحضارة .

ولكن تيليز حين يقرر ذلك يتناسى تلك الحقبة التى انقضت منذ رحيل الآباء الجزويت عن الأراضى الحبشية على أثر الفتن الدينية التى كادت تودى بالأسرة الملكية الحاكمة ، كما سبق أن قدمنا ، كما تناسى أن البلاد تعرضت خلال هذا القرن لغزوات الأمير أحمد تارة وقبائل الغالا الوثنية تارة أخرى ، فأصيبت الدولة فى ذلك العهد بنكسة شديدة ، وتبددت أموالها ، وتقوضت أمجادها ، وانهار صرح الاستقرار

وضاعت هيبة الملكية والحكومة فيها . . .

ونحن نورد فيما يلى جانباً مما جاء فى كتاب تيليز عن الحبشة ، يقارن فيه بين عظمة الرومان وبذخهم وثرائهم ، وبين تواضع ملوك الأحباش وتقشفهم وفقرهم ، فيقول فى وصف وليمة أقيمت بقصر النجاشى ، إنه قد مد سماطان . أحدهما صغير لصاحب الجلالة ، والآخر أكبر منه بقليل للآباء اليسوعيين ، ولم يكن فوق هذا أو ذاك غطاء من الدمقس ، ولا أطباق من الذهب ، ولما حان موعد العشا أسدل رجال الحاشية ستاراً بين المائدتين ، على حسب التقاليد المرعية فى الحبشة التى تقضى بألا يرى أحد جلالة الإمبراطور وهو يتناول الطعام ، فيما عدا الخدم الذين يقدمون الصحاف بين يديه . ولقد توفر على خدمة الآباء اليسوعيين فرقة من النساء ، ترتدى كل واحدة منهن ثوباً فضفاضاً من نسيج القطن الرخيص ، ويحيط بخصرها حزام عريض ينحدر الثوب من تحته فى ثنيات تبدى مفاتن الجسد الأسمر ، وعلى يدها سلة من القش تحتوى على أنواع غريبة من الفطائر المحشوة باللحم أو برقائق من فواكه الأناناس والتفاح والكمثرى .

ثم تقبل طائفة أخرى من النساء يحملن أوعية من الفخار الأسود تحوى ألواناً من الحساء فيه قطع كبيرة من اللحم المساوق ، وتغطى هذه الأوعية أغطية من الخوص هرمية الشكل . . .

وعلى هذا تقتصر الفخامة الإتيوبية التى طالما أسهب فى وصفها المؤلفون الأوائل ، فليس هناك ملعقة ، أو شوكة ، أو سكين ، كما لم

يكن على المائدة ملح أو توابل أو مشهيات من أى نوع . . .

ويتحدث تيليز فى فصل آخر من كتابه عن أراضى الحبشة وحدودها ، فيرسم لنا صورة جلية عن سلطة الإمبراطور فى مختلف الولايات ، إذ يقول ان اثنتين من هذه الولايات تؤديان الجزية السنوية للنجاشى ذهباً ، وهما ولايتا جوجام وإيناريا ، وكثيراً ما كانت جزية إيناريا تضيع على سيد البلاد . إذ كان يقتنصها رجال قبائل الغالا فى أثناء الطريق !

أما بقية الولايات فكانت تؤدى ما عليها حبوباً أو خيولا ؛ وكان بعضها يعفى من تقديم الخيول لحاجة السكان إليها فى الدفاع عن أنفسهم واتقاء شر المغيرين على أراضيهم ، فيستعاض عنها بالبقر ، فتقدم للإمبراطور بقرة عن كل عشر بقرات يملكها السكان كل ثلاث سنوات ، كما تقدم قطعة من نسيج القطن طولها خمسة أمتار عن كل نول .

وكان للحكومة المركزية فى بعض الأصقاع مكاتب لجباية الأموال ، ولكن معظمها كان يدخل فى جيوب الأمراء سادة تلك المناطق . . .

ويقول تيليز إن النظام الذى كان متبعاً من قبل بإسناد السلطة التنفيذية إلى اثنين من ذوى الحظوة المقربين إلى النجاشى لم يبق معمولا به فى القرن السابع عشر ، إذ استبدل بهما رئيس وزراء يجمع بين سلطات القائد الأعلى ونائب الملك ، ويطلق عليه اسم (الرأس) .

ويصف تيليز حفلة تتويج الإمبراطور فيقول إن الركب الملكى يقصد إلى كتدرائية أكسوم ، تتقدمه كتائب الجيش ورجال البلاط وعيون البلاد وسادتها ، فإذا ما اقترب من الكتدرائية اعترض طريقه سرب

من العذارى النبيلات يسألنه : من عساك تكون ؟ فيرد الإمبراطور قائلا : إننى ملك إسرائيل ، من سبط يهوذا ! فيقلن : إنك لست بملك البلاد ! فيرد النجاشى بأنه ملك صهيون ، وحامى الأراضى المقدسة ! وهنا تفسح الفتيات له الطريق ، وترتفع الهتافات تشق عنان السماء وتدوّى طلقات الأعيرة النارية ، وتدق الطبول ؛ ثم يتقدم « أبونا المطران » يحف به الكهنة ، فيستقبلون النجاشى عند مدخل الكاتدرائية ، ويحيطون به إلى أن يصل إلى المذبح ، ثم يضع المطران على رأسه تاجاً يقول تيليز إنه شبيه بقبعة عريضة من المخمل الأزرق ، تحليه زهور الزنبق وقطع من الأحجار الزائفة . ولا يحمل النجاشى فى هذا الحفل سيفاً ولا صوبلجانا ، وإنما يحنى رأسه حينما يقام القداس ويسبغ عليه المطران بركات الكنيسة .

زمن العزلة :

صب الآباء اليسوعيون جام غضبهم على رأس باسيليدس ، فاتهموه بأنه قتل إخوته الأربعة والعشرين ، وجحد دين آبائه ، وكان من المسلمين !

ويضيف هؤلاء الآباء أن عهده شهد غزوات قبائل الغالا ، واجتاح الجراد أراضى المملكة ؛ ولكن التاريخ لا يحمله وزر هذه الغزوات ، ولا إصابة أراضيه بتلك الآفة ، حتى لو كان هؤلاء الآباء من الصادقين ؛ فليس فى صفحات التاريخ المتوارث ما يدل على اشتداد غزوات الغالا

أو تفاقم هجوم الجراد فى عهده على ما سبق من عهود .

كما لم يثبت أن باسيليدس أشهر إسلامه ، وإذا كان قد تقرب من الملوك المسلمين وخطب ودهم فإنه لم يفعل ذلك إلا خشية غدر الأوربيين به واتقاء غزوهم لأراضيه .

وليس ثمة دليل على أنه قتل إخوته ، وإنما جرى على سنة آبائه فبعث بهم إلى حصن فى ذروة الجبل كيلا يحيكوا له الدسائس ويكيدوا للعرش .

نعم إنه كان ملكاً مستبداً ، قوى الشكيمة ، ولكن كان لا بد للحبشة من ملك مثله يعيد الأمن إلى نصابه ويصلح ما جلبته الحروب الأهلية على البلاد من ويلات وشرور ، وما أنزلته باقتصادياتها من مصائب فى عهد سلفه سيسنيوس ، وقد حالفه التوفيق ، فشن خلال حكمه الذى امتد ثلاثة وثلاثين عاماً عدة حروب ، ووطد أركان ملكه ، ونشر ألوية السلام فى ربوع بلاده ، فأقام فى غوندار على مقربة من بحيرة تسانا عاصمة جديدة للمملكة ، وظلت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بيد أنه لم يهمل أكسوم ، عاصمته السابقة ، بل أعاد بناء كتدرائيتها التى كانت قد تداعت وأصابها البلى إبان الحروب التى شنها على الحبشة الأمير أحمد .

وقد خلفه ابنه يوحنا ، الذى امتاز عهده بالسلم والرخاء ، واستأنف المبشرون فيه جهودهم لنشر تعاليم الكاثوليكية بين سكان البلاد ، ولكنهم لم يفلحوا ، إذ كان النجاشى على غرار أبيه عدواً لدوداً لهم ، فجمع

كتب الآباء اليسوعيين وأمر بإحراقها . على أنه لم يكن أكثر تسامحاً إزاء المسلمين ، فأمر بتخصيص حي لهم فى العاصمة يلزمونه ويعيشون فيه بمعزل عن بقية السكان .

ثم تولى العرش من بعده ابنه يسوع ، فحكم الحبشة ٢٤ عاماً (١٦٨٠ — ١٧٠٤) ؛ ويبدو أنه يستأهل لقب (الأكبر) الذى أضيف لاسمه ، فقد كان محارباً عظيماً ، دون أن يكون نزاعاً إلى إراقة الدماء . وتروى التواريخ الشعبية عنه أنه قام بإصلاح الإدارة الحكومية ، فقطع دابر جباة الضرائب الجشعين ، ووحد التعريفة الجمركية فى مختلف حدود بلاده ؛ وفعل ما لم يفعله ملك من قبله ، فقام بزيارة إخوته وأبناء عمومته الأمراء فى المنفى ، وتفقد أحوالهم ، وتعرف على مقدار ما يعود على كل منهم من إيراد يسلب الحراس جانباً كبيراً منه ؛ كما استمع لشكاواهم ، وأعد لهم جميع وسائل الراحة والرفاهية فى منفاهم ؛ واستعاد سلطان التاج على الكنيسة بعد أن تلاشى أو كاد بسبب تدين أبيه وخضوعه لسلطان القساوسة ، فأعلن بصراحة أن للنجاشى وحده مطلق الحرية فى عقد المجمع الكنسى أينما أراد ومتى أراد ؛ وأخيراً عمل على تخفيف موجة اضطهاد الأوربيين التى طغت على البلاد إبان حكم أبيه وجده .

هذا ، وقد بذلت محاولتان فى سبيل استئناف العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، ولكنهما باءتا بالفشل ولم تأتيا بالثمرة المرجوة ، ومع هذا فإن إحداهما جديرة بالرواية . . .

فقد ألح الآباء اليسوعيون على لويس الرابع عشر أن يوفد إلى بلاط

النجاشي بعثة تدعوه لإرسال سفارة إلى بلاط (الملك الشمس) ويصحبها عدد من شباب النبلاء والنبيلات الأحباش لتلقينهم الأصول المرعية فى بلاط الملك .

فكان أن تلقى مسيو مابيه قنصل فرنسا بالقاهرة تعليمات من مليكه بالبحث عن رسول لائق يسافر إلى الحبشة ويرسم للسفارة طريق السفر إلى فرنسا ويذلل جميع العقبات التى تعترض أعضاء هذه السفارة ، كما يوفر للسادة النبلاء والسيدات النبيلات وسائل الراحة حتى يصلوا إلى العاصمة الفرنسية .

وقد اتفق وقتذاك أن النجاشي يسوع كان يعانى التهاباً فى غشاء البطن ، فأوفد إلى القاهرة رسولا يسعى وراء طبيب لعلاج الإمبراطور ، فانتهز القنصل مابيه الفرصة وفاتح صيدلياً من رعايا بلاده يدعى بونسيه فى أمر السفر إلى غوندار ، وقدمه بعد ذلك إلى « الحاجّ على » رسول الإمبراطور على أنه خبير نطاسى يعالج الأمراض الباطنية ، ومن بينها التهاب غشاء البطن !

وزوّد القنصل الطبيب بونسيه بأوراق اعتماد تتضمن الأهداف الأخرى التى تسعى إليها البعثة الفرنسية ، ومنها إيفاد سفارة حبشية إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر .

واصطحب بونسيه فى رحلته أحد الآباء اليسوعيين بوصفه تابعاً له ، وسار الركب إلى الأراضى الحبشية ، فبلغها عن طريق سنار ، ثم تولى الطبيب علاج الإمبراطور فكان التوفيق حليفه ؛ ولكن النجاشي عندما

سمع باقتراح إرساله سفارة إلى فرنسا لم يأخذه على محمل الجد ، إذ بدت له صعوبة اختراق أعضاء السفارة للأراضى العثمانية ، لاحتمال وقوعهم وهم النبلاء والنبيلات أسارى فى أيدى الأتراك ، فيتخذون منهم عبيداً وجوارى !

ثم كيف تأتيه بعثة من قبل ملك عظيم يقال إن الشمس لا تغرب عن ملكه ، ولا تحمل إليه الهدايا الفاخرة التى لا يستغنى عنها فى العلاقات الدبلوماسية مع الملوك الشرقيين !

أجل ، لقد فرح الإمبراطور بشفاء علته ، ولا بأس من مكافأة أخيه ملك فرنسا على تلك اليد البيضاء ، فليجزل العطاء لرسله ، وليحملهم إلى مليكهم أفخر الهدايا ؛ أما إيفاد النبلاء والنبيلات إليه فأمر لا يسوغ أن يجول بخاطر إنسان عاقل !

على أنه أوفد رسولا من لدنه يدعى مراد ، يدين بالإسلام ، وله إلمام باللغة الفرنسية ؛ وكل معلوماته عن الدبلوماسية مستقاة من اتصاله بأحد التجار الأوربيين فى حلب ؛ فحمله النجاشى رسالة شكر لصاحب الجلالة ملك فرنسا على المنة التى أسداها إليه ، كما زوّده ببعض الهدايا والعبيد ، وفيل صغير أسود ؛ ولما وصلت البعثة إلى القاهرة ، أراد القنصل الفرنسى بدافع من الفضول الاطلاع على خطاب الاعتماد الذى يحمله بونسيه ، فأبى بونسيه أن يتم ذلك إلا فى حضرة المليك ؛ فحنق عليه القنصل ، وطلب إلى الوالى العثمانى مصادرة أوراق الاعتماد ؛ فاحتج الآباء اليسوعيون على هذا الافتيات على الأصول الدبلوماسية المرعية ،

وخشى الباب العالى أن يؤدى هذا الحادث إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والقسطنطينية ، فأوفدت حكومة القسطنطينية لجنة للتحقيق ، استعرضت الوقائع ، ثم أصدرت حكمها بأن يتحمل القنصل مابيه نفقات البعثة العثمانية ، تطبيقاً للقوانين التركية التى تقضى بأن يكون الغرم على الجانب المدان ، فاشتد سخط القنصل على بونسيه ؛ وآلى على نفسه أن يثير الشكوك من حوله حتى ينال من سمعته ، فرماه بالشعوذة والاحتيال ، واتهمه بأنه لم يزر الحبشة ولم تطأها قدماه !

غير أن بونسيه لم يأبه لهذه الاتهامات الرخيصة . بل استأنف رحلته فى صحبة مراد ، حتى بلغ قصر فرساى ، فمثل السفير الفرنسى بين يدى مليكه ، وقدم الرسول المسلم إليه بوصفه سفيراً لملك الملوك . . .

ثم رفع تقريراً عما شاهدت عيناه وسمعت أذناه فى الحبشة ؛ إلا أن نقمة مابيه ، القنصل الفرنسى بالقاهرة ، كانت قد سبقته إلى البلاط ، فما لبث العلماء الفرنسيون أن شنوا حملة طاغية على التقرير وصاحبه قائلين إنه رواية من نسج الخيال ، مؤيدين قولهم بأن اسم مراد ليس من الأسماء الحبشية ؛ ولا عجب فالرجل مسلم ، وهو إلى ذلك أرمنى الأصل . . .

وقالوا أيضاً إن غوندار عاصمة مزعومة لا وجود لها ، لأنها لم يأت لها ذكر فى كتب الآباء اليسوعيين ؛ وفاتهم أن جد النجاشى اتخذها عاصمة لملكه بعد طرد اليسوعيين بنحو عشرين سنة !

وكان قد جاء فى تقرير بونسيه أن بالحبشة عدة مدائن كبيرة ، فى حين كان الشائع على ألسنة الآباء اليسوعيين ، أن المدينة الوحيدة فى

الحبشة هى أكسوم ، وأن سكانها يعيشون فى الخيام !

وجملة القول أن بونسيه أصبح موضع السخرية ، فلم يلبث طويلا حتى عاد إلى القاهرة يندب حظه العاثر ومآل مشروعه الخاسر . . .

هذا ما كان من أمر البعثة الأولى التى أوفدت إلى الحبشة وانتهت بالفشل الذريع ؛ ولكن الحكومة الفرنسية لم تقنع بهذه النتيجة ، بل أوعزت إلى قنصلها بالقاهرة أن يتولى قيادة بعثة أخرى إلى مملكة النجاشى ، وما كان مايبه ليرضى بأن يستبدل بنعيم القاهرة وعثاء السفر إلى بلاد مجهولة ، فاعتذر بأن صحته لا تحتمل القيام بتلك المهمة ، وأشار على باريس أن تنتدب مكانه مسيو دى رول ، نائبه بدمياط ، فما لبث دى رول أن تسلم تفويض حكومته وأوراق اعتماده بوصفه سفيراً لبلاده لدى إمبراطور الحبشة . . .

على أنه بالرغم من إقباله على مهمته وارتياحه لها ، كان يجهل كل شىء عن تلك البلاد وعادات سكانها وتقاليدهم ؛ وكان فى الوقت نفسه ، على غرار مواطنيه ، يكنّ الازدراء لكل غريب عن بلاده ، فلم يكن لذلك بالشخص الذى يحسن إيفاده إلى الأمراء الأفريقيين .

وما كاد دى رول يبدأ رحلته حتى أخذت الغيرة تدب فى النفوس ، فما كان رهبان الفرنسيسكان ليقروا عيناً بافتيات ممثلى اليسوعيين على حقوقهم المكتسبة فى الأراضى الحبشية ، وما كان المسلمون والأقباط ليرضوا باستئناف العلاقات بين ملك فرنسا وإمبراطور الحبشة ، فلاعجب أن يروح دى رول ضحية لهذه العوامل الهدامة التى أحاطت به ، وأن

تقام فى وجهه العقبات ، فلا ينتقل من مكان إلى آخر إلا إذا دفع مالا ، ولا يحل ببلد إلا تعقبته السلطات بطلب إبراز أوراق اعتماده وتحقيق شخصيته ، مع ما يصاحب هذه الإجراءات من إساءة وعسف . . .

وأخيراً وبعد طول عناء، بلغت البعثة بلدة سنار ، فقوبل أعضاؤها بجفاوة بالغة ، ودعى دى رول إلى قصر النجاشى ، حيث كان جلالته فى انتظار ضيفه الكريم تحف به هالة من قريناته .

وكان أول خطا ارتكبه السفير أن دعا سيدات البلاط لمشاهدة عجيبة العجائب التى أحضرها بين هداياه : وما كانت إلا مجموعة من المرايا المضحكة التى يقف أمامها رواد مدينة الملاهى ممسوخين مشوهى الخلقة ، قصاراً كالأقزام أو طوالا كالعماليق !

وامتدت أيدى زوجات النجاشى إلى المرايا ، فلا تكاد إحداهن تطالع صورتها حتى تصرخ رعباً وتلقى بالمرآة على الأرض ثم تفر هاربة وهى تولول وتخنقها العبرات !

وارتفعت صيحات النساء تستنزل اللعنة على رأس « الساحر الأجنبى » وتطالب بتعذيبه وقتله !

وكانت هذه خاتمته ؛ إذ أحاط به رجال الحرس وجروه إلى عرض الطريق حيث قتلوه ومثلوا بجثته أبشع تمثيل، ولم ينج من المذبحة أحد من أعوانه ؛ وكان رهبان الفرنسيسكان قد غادروا المدينة أثناء زيارة دى رول ورجال بعثته ، وبذلك لم يكن له من بينهم منقذ ولا معين !

وفى تلك السنة مات النجاشى يسوع ، وخلفه ابنه تكلا حايمانوت ، فلم يبق على العرش طويلا ، إذ تآمر عليه بعض النبلاء وقتلوه ؛ وجاء بعده عمه تاوفيلوس ، فشهر سلاح الانتقام فى وجه جماعة النبلاء الذين قتلوا ابن أخيه غدراً ؛ وكان تاوفيلوس فظاً غليظ القلب ، فأشعل بغلظته مراجل الغضب فى القلوب ، وأخذت بوادر الثورة تبدو فى الأفق ، ولم تلبث أن اشتعلت حين وفاة الإمبراطور سنة ١٧٠٠ ، وأطاح النبلاء بملك الأسرة السليمانية التى حكمت البلاد منذ عام ١٢٧٠ ، ونادوا بالرأس جوستوس ، حاكم مقاطعة تيجرى ، إمبراطوراً على الحبشة . . .

ولكن النبلاء ما لبثوا أن ناصبوا إمبراطورهم العداء وراحوا يحيكون له الدسائس ، على حين كان فى نظر الشعب غاصباً ، فلما أقعده المرض سرت إشاعة فى الجيش بأن النبلاء يزمعون تنصيب ابنه مكانه على العرش ، فاشتعلت نيران الثورة ، ونادى الجيش بداود ابن النجاشى يسوع ملكاً ، فدخل مدينة غوندار فى موكب حافل ، وعاد الملك إلى الأسرة السليمانية بين تهليل الشعب وتكبيره.

وكان أول تدبير اتخذه النجاشى الجديد إرضاء لشعبه ، أن أمر بإعدام رجال الدين الكاثوليك الذين أكرم سلفه جوستوس وفادتهم ومنحهم حرية التبشير بمذهبهم .

وضاق بألاعيب رؤساء الأديار الذين كانوا يثيرون النفوس على العرش والكنيسة ، فاستباح دماءهم وسلط عليهم كتائب جيشه التى تضم جنوداً

من قبائل الغالا الوثنية ، فعبثوا بالأديار وذبحوا الرهبان فلم يبقوا منهم على أحد !

ومات النجاشى بعد أن حكم خمس سنوات ، فبايع الجيش أخاه آسما جورجى بن يسوع الأكبر ، الذى أطلق عليه فيما بعد لقب الجبار ، إذ آلى على نفسه أن يكسر شوكة النبلاء ويقضى على نفوذهم ، فجرد عليهم حملة قاسية أطاحت بسلطانهم وشردت أسرهم ، وجعل أزمّة السلطة فى الولايات بأيدى رجاله المخلصين .

وعلى الرغم من صرامته وشدة معاملته لخصومه — ولعلهما السبب فى مقارنته بأمير المؤمنين هرون الرشيد فى الأقاصيص الشعبية الحبشية — كان كثيراً ما يلجأ للحيلة فى الكشف عن أعدائه وخصومه ، فيدّعى الموت ، حتى إذا عرف الغادر والخائن والمتربص من أعدائه ، خرج من مخبئه وانقض عليهم فأعمل فى رقابهم السيوف !

وكان يخرج فى الليل متنكراً لتفقد أحوال رعاياه ومعرفة ما يقال عنه وما يشاع حوله ، والكشف عن منافسيه ؛ ويقال إنه فى إحدى هذه الجولات الليلية تعرف على الفتاة التى شاطرته الملك ، وحملت التاج معه وحدها ، دون حليلة أخرى أو خليلة ، على غير ما كان يفعله آباؤه وأجداده الأباطرة .

ويقال فى تفصيل ذلك إن وطأة الحمى اشتدت عليه ذات ليلة فى إحدى القرى القريبة من بلدة سنار ، فآواه سيد القرية وأحاطه برعايته ، وظلت ابنته (برهان منجازا) إلى جانب فراشه طوال الليل تقوم على خدمته

فلما طلع عليه النهار كشف لرب البيت عن شخصيته وطلب إليه يد ابنته. فزفت إليه فى غوندار بعد قليل .

وتروى الأساطير عنه أنه شاهد فى إحدى جولاته الليلية شاباً فى مقتبل العمر يغسل ثوبه فى مياه مستنقع ، فاقترب منه . وكان الحر شديداً ، وطلب إليه أن يغسل عباءته هو أيضاً ، فلم يبد الفتى تذمراً ، بل أقبل على غسلها راضياً قرير العين ؛ وفى هذه الأثناء أخذ النجاشى يناقشه فى شئون الدولة . ويعيب بعض تصرفات الملك ، فما كان من الفتى إلا أن ألقى إليه بعباءته قائلا له إنه كان يغسل رداء رجل يظن أنه عابر سبيل مسكين . ليكون له ثواب الخير ، فإذا بهذا الرجل يعيب على ابن الكنيسة الإمبراطور أعمالا أتاها ولا لوم عليه فى إتيانها ، ومثل هذا الرجل لا يستأهل خيراً ولا يستحق أن تسدى إليه يد !

فما لبث النجاشى أن كشف له عن شخصيته واصطحبه إلى غوندار حيث أسند إليه مهام منصب كبير فى الدولة . فكان هذا الفتى من أعظم أعوان المليك من بعد وأقربهم إلى قلبه .

ويروى أيضاً أنه قابل شيخاً فى إحدى الليالى يستخبر الرمل ويتكهن بالمصاير ، فسأله عما يخبئ القدر لسيد البلاد ؛ فقال الشيخ : سيرزق النجاشى ولداً ، ولكن هناك شخصاً يدعى (وليتا جورجى) لا يجرى فى عروقه الدم الملكى . سيحكم الحبشة ثلاثين عاماً بعد موت الإمبراطور !

فعاد النجاشى إلى عاصمة ملكه كاسف البال حزيناً ، ثم أمر بقتل

كل من يحمل هذا الاسم الشائع من بين رعاياه ؛ ثم من الله عليه بغلام ، فأفضى بسر النبوءة إلى زوجته ، فإذا بها تضحك فى وجهه وتقول له إن اسمها عند تعميدها هو وليتا جورجى ، أى (ابنة جورجى) ، وهى كما قال الرّمال تعيش فى كنفه فى القصر الإمبراطورى ، وليس من المستبعد أن تحكم الحبشة باسم ابنها الطفل ، إذ ما قدر لأبيه ، بعد عمر طويل ، أن يموت ، ولم يكذب الشيخ عند ما قال إن الدم الملكى لايجرى فى عروقها !

ومما يجدر ذكره أن الملكة الأم هى نفسها التى قصت هذه النبوءة على بروس (الرحالة الإسكتلندى) بعد أربعين عاماً من وفاة زوجها النجاشى آسما جورجى .

كيف تداعت الملكية :

وتحققت نبوءة العراف ، فمات النجاشى عام ١٧٢٩ بعد أن حكم عشر سنوات ، ولم تجد الملكة عناء فى المناداة بطفلها ملكاً على الحبشة باسم يسوع الثانى ، فشهدت البلاد طوال عهده الذى امتد حتى عام ١٧٥٣ تقلص نفوذ الأسرة السليمانية الحاكمة وأفول نجمها ؛ فقد أثارت الملكة الأم حفيظة النبلاء ، إذ أسلمت زمام السلطة لنفر من أقاربها قلدتهم أرفع المناصب ؛ هذا إلى خور طبيعتها وضعف شكيمتها فى كبح جماح الثائرين وإزالة سخط النبلاء ، واضطرارها أخيراً لقبول الحلول الوسطى مع جماعة الأرستقراطيين ، مما أدى إلى استرداد نفوذهم الذى كان قد تلاشى فى عهد قرينها أو كاد .

ولما بلغ يسوع الثانى مبلغ الرجال ، ظهر أنه لم يرث عن أبيه الصلابة والدهاء والحرص على الاستئثار بالحكم ، بل كان ناعماً ليناً ، يقضى معظم أوقاته فى الصيد والقنص ، ويهوى الفنون الجميلة ، ويقتنى التحف النادرة ويدفع فيها غالى الثمن ؛ وتجمع حوله نفر من اليونانيين الذين كانوا قد لجأوا إلى الأراضى الحبشية إثر اضطهاد الأتراك لهم ، فاستعان بهم فى إعادة بناء القصر الإمبراطورى على ربوة عالية ، وتزيين جدرانه بالصور والزخارف . وقد زار المؤرخ الإسكتلندرى بروس قصر النجاشى ، وأبدى إعجابه بهندسته وأبهائه الواسعة التى جلب الإمبراطور المرايا من فينسيا لتزيين جدرانها ، كما جلب لوحات من إيطاليا تحمل أسماء كبار الفنانين . . .

وكان يسوع يقضى الساعات الطوال فى قصره الجديد غير عابئ بمهام الدولة ، فجلب على نفسه نقمة رعاياه وازدراء رجال الجيش الذين أطلقوا عليه لقب « الصغير » على سبيل التندر ، على نقيض جده الذى أطلق عليه من قبل عن جدارة لقب يسوع الأكبر .

وكان الناس يرمونه بالتخنث ، وينظمون فى وصفه الأزجال المليئة بالسخرية ، فما كان منه إلا أن جرد حملة لتأديب العصاة فى ولاية سنار ، ولكنه هزم هزيمة منكرة وأبيد جيشه عن بكرة أبيه ، ففر هارباً إلى عاصمة ملكه !

وكان المطران قد مات فى هذه الأثناء ، وخزائن الدولة خاوية ، نتيجة لنزوات الإمبراطور وترفه ، فاضطر لفرض ضريبة على الكنائس تجبى من روادها ، لسد نفقات رحلة المطران الجديد من القاهرة إلى الأراضى الحبشية !

وقد لاقت البعثة التى أوفدها النجاشى إلى مصر مصاعب جمة ، وبلغت نفقاتها أرقاماً خيالية ؛ إذ اغتال نائب مصوع أموال البعثة التى كانت مخصصة للسلطات المصرية ، واضطر أعضاء البعثة للنزول فى ميناء جدة ، ففرض الشريف عليهم قدراً كبيراً من المال ؛ وكانت ثالثة الأثافى اعتقال المطران الجديد فى مصوع ، فأقام فيها فترة حتى احتال يونانى من رجال النجاشى على تيسير فراره !

ولم يكن نائب مصوع ليجرؤ على سجن المطران لولا تشجيع سيده الرأس ميخائيل سوهول ، صاحب ولاية تيجرى ، الذى كان مسيطراً على المنطقة الساحلية ، يجبى المكوس ويستولى على ما يحلو له من واردات الحبشة ، لاسيما الأسلحة والذخائر التى كان يزود بها جيشه ، حتى أصبح لا يشق له غبار ولا يستطيع جيش النجاشى مواجهته . . .

وكانت الملكة الأم ، كما قدمنا ، تحقد على طبقة النبلاء ، فعقدت لابنها النجاشى على فتاة من قبائل الغالا التى تنتمى إليها الإمبراطورة نفسها ، فلما مات زوجها عام ١٧٥٣ ، تسلمت مقاليد السلطة من الملكة الأم ، وحكمت البلاد باسم ابنها جواس ، وأسندت أسمى المناصب إلى أبناء عشيرتها من قبائل الغالا ، وعينت أخويها حاكمين على ولايتى أمهرا وجوجام ، فما لبث الشعب أن ثار عليهما ، فقتل أحدهما وفر الآخر ؛ ورأى النجاشى أأن لا حيلة له إلا بالالتجاء إلى سوهول ، حاكم المناطق الساحلية ، ذى القوة والبأس ، فعينه نائباً عنه على أراضى المملكة بأسرها !

وساق سوهول جيوشه على أعداء الإمبراطور فنكل بهم ، وبذلك

أشعل نار الضغينة فى قلوب الأهالى على النجاشى جواس ، ثم ما لبث أن نادى بتكلا حايمانوت إمبراطوراً على الحبشة ، فى الوقت الذى وصل فيه المؤرخ الإسكتلندى بروس إلى قلب العاصمة . . .

وقد رسم بروس صورة قاتمة للإمبراطورية فى ذلك العهد ، فذكر أنها كانت مقطعة الأوصال ، منهوكة القوة ، بتر المغيرون أطرافها من كل جانب ، وانقض عليها أعداؤها يلغون فى دمائها وينهشون لحمها ؛ وانقطعت سبل المواصلات بين أجزائها الموالية للإمبراطور والمعادية له ، واستقل بعض الحكام والرؤوس بولاياتهم فلم يعد أحد منهم يؤدى الجزية ، وضاع الحق وكلمة الدين وسط الحروب الأهلية التى أنهكت قوى الإمبراطورية وتركتها مضعضعة عليلة .

وفى ذلك العهد لم يكن للحبشة أعداء يخشى بأسهم سوى الغالا ، أما من عداهم من مسلمى الصومال ، الذين كانوا فى وقت من الأوقات ذوى حول وطول ، فقد زال خطرهم باضمحلال الدولة العثمانية التى لم يعد احتلالها مصوع إلا مظهراً شكلياً وصورة زائفة ، إذ نزل الأتراك عن الحكم لزعيم قبائل البيدجا التى تضرب بالقرب من الميناء ، وصدر فرمان بتعيينه نائباً فى نظير جزية سنوية للباب العالى ، أما جنود الحامية الأتراك فقد زالت عنهم صفة الجندية منذ ارتبطوا إلى أهالى المنطقة بالمصاهرة ؛ وقد تهكم عليهم بروس عند ما وصف ثيابهم المهلهلة التى لا تكاد تستر العورة ، ووهم يزهون مع هذا بمجدهم السالف حينما كان يطلق عليهم اسم الأنكشارية !

وما كان أيسر على الأحباش أن يطيحوا بهذه الزمرة من أشباه

المحاربين ، لولا رغبة حكام مقاطعة تيجرى فى الإبقاء عليهم ليتخذوا منهم ستاراً يتوارون وراءه كلما وقعت أحداث يخشى إلقاء تبعتها عليهم أو يكون لهم ضلع فيها . . .

أما فيما عدا هذا فقد ظلت حالة البلاد على ما كانت عليه من قبل : سلطان الكنيسة واسع ، ولا يكاد المسافر ينطلق من بلد إلى آخر حتى يطالعه دير أو كنيسة ، والمطران محوط بنفر ممن يسعون إلى مناصب الكنيسة ، والكاثوليك مغضوب عليهم .

وعلى الرغم من تداعى سلطة التاج ، فقد كان النجاشى محوطاً بهالة من المظاهر الملكية ، يخرج من القصر على صهوة جواد ، أو ممتطياً بغلا ، فإذا ما ذهب إلى الكنيسة سار مترجلا ، وإذا جلس فى ساحة القضاء أسدلت على وجهه غلالة سميكة ولزم الصمت وتكلم بدلا منه ضابط من الحرس يطلقون عليه اسم (صوت النجاشى) . وكانت ساحة القصر الملكى تعج بالوافدين إليها من المتقاضين وأصحاب الشكاوى قبيل الظهر ، فترتفع الأصوات بعبارة « اقض بيننا يا صاحب الأمر فينا ! »

ويقول بروس إن معظم المحامين كانوا من الأفاقين الذين يرتادون المجالس ويروون القصص الشعبية ويستغلون غفلة العامة !

فإذا ما انعقد مجلس الدولة جلس الإمبراطور فى صندوق خشبى كبير يلاحظ خلال فتحاته وثغراته هيئة القضاء التى تجلس إلى مائدة مستديرة ، ويدلى كل منهم برأيه فى القضية على حسب أهمية مركزه بالترتيب التصاعدى ، فإذا ما تعددت الآراء كان الرأى الأخير للنجاشى

يحمله (صوته) إلى الهيئة .

وكانت الأحكام صارمة قاسية ، كما كان من المألوف أن تبتر ذراع المجرم أو ساقه أو تفقأ عينه ، فإذا أدين شخص بتهمة الخيانة قضى عليه بالأعدام ، ولا تجوز مواراة جثته الثرى ، بل يلقى بها فى عرض الطريق !

وكثيراً ما كان يحدث فى أثناء الثورات أن يتعثر الأنسان فى الطريق بأشلاء متناثرة من جثث المحكوم عليهم بالخيانة ، والضباع تنهشها فى الليل ، والغربان تحوم حولها فى وضح النهار !

أما سلاح الجيش فى ذلك العصر فكان قاصراً على السيوف والرماح ، كما كان الحال فى القرون الوسطى ، ولم يكن مزوداً بالأسلحة النارية إلا جنود كتيبة واحدة من الحرس الإمبراطورى النظامى .

وكان للنجاشى حرس خاص يتألف من بعض العبيد وجماعات من المرتزقة الغرباء ؛ وكان لحكام الأقاليم فى أغلب الأحيان جيوش مجهزة بأسلحة أحدث مما كان يستخدم فى جيوش الإمبراطور !

فإذا أمر صاحب الجلالة بالتعبئة العامة ، أذاع على الرؤوس وحكام الولايات ثلاثة بيانات ، يوصى فى أولها بشراء البغال وتجهيز الخدمة وإعداد الزاد والمؤن ؛ ويأمر فى الثانى بإزالة الأشواك والعقبات من جميع الطرق لأن النجاشى لا يعرف إلى أين يقود جيوشه ؛ ثم يصدر البيان الأخير بأن الإمبراطور يعسكر فى مكان كذا ، ومن لم يوافه إليه استحق غضب المليك وكان حسابه عسيراً !

صراع بين كبار الزعماء
١٧٧٠ — ١٨٧٠

عاش الرحالة بروس فى ظل رعاية الرأس ميخائيل عامين ، شهدت فيهما البلاد صراعاً دموياً وثورات متعاقبة أقضت مضاجع الناس ، فترك الكثير منهم ديارهم بعد أن فقدوا أموالهم ومتاعهم ؛ ولم يطق بروس العيش أكثر من ذلك فى الحبشة ففر منها ، سالكاً الطرق الوعرة حيناً وضارباً فى تيه الصحارى أحياناً ، حتى وصل إلى سنار ، ومنها إلى لندن ، حيث أذاع على الملأ ما شهد فى الحبشة وما سمع من رواة الأخبار عن تاريخها ؛ ولكن بعض الناس ظنوا أن رواياته من نسج الخيال فلم يعيروها التفاتاً ولم يعولوا عليها لغرابتها وبعدها عما كان يرويه الآباء اليسوعيون ويبتدعه خيالهم الخصيب عن أبهة الملك وعظمة القصر الإمبراطورى .

فلما دب اليأس فى قلبه انزوى وآثر العزلة فى إحدى قرى إسكتلندة ، حيث وضع مذكراته وترجم ما ترجم من المخطوطات الحبشية التى أحضرها معه والتى صارت فيما بعد من المراجع التاريخية الجدية المعتمدة .

ولنعد الآن إلى تلك الفترة العصيبة التى مرت بالبلاد ودامت زهاء قرن من الزمان :

كان الرؤوس والحكام يناصرون هذا النجاشى أو ذاك ، فيضعون

التاج على رأسه ثم لا يلبثون أن يخلعوه ، وفق أهوائهم وتبعاً لما لهم من نفوذ .

وغدت هذه التغييرات مألوفة ، فكان فى الحبشة عام ١٨٠٠ ستة من الأباطرة على قيد الحياة ؛ فلا عجب إذا استبدت الحيرة بهنرى سولت ، أحد أعضاء البعثة الإنجليزية التى عهد إليها الملك الإنجليزى جورج الثالث كشف البحر الأحمر ، حينما نزل إلى الأرض الحبشية فلم يتعرف على مليكها الذى يجب أن يقدم إليه هدايا ملكية وأوراق اعتماده ؛ فلما رأى الطريق إلى غوندار غير مأمون ، قدم الهدايا وأوراق اعتماده إلى حاكم ولاية تيجرى !

وكان المطالبون بالعرش فى مستهل القرن التاسع عشر أربعة كباراً : سيد مقاطعة تيجرى الواقعة فى شمال الحبشة الغربى ، وسيد ولاية أمهرا الذى كان يضفى حمايته على الإمبراطور ، وحاكم ولاية جوجام بجنوب بحيرة تسانا ، ثم سيد مقاطعة شوا الواقعة شرقى البحيرة .

وفى عام ١٨٥٠ لم يبق من هؤلاء الأقطاب سوى اثنين ، بعد أن مات الآخران فى أثناء الحروب الأهلية ، وبذا أصبح التنافس بين الاثنين الباقيين دون غيرهما ؛ ولكن الناس فى تقدير والله فى تدبير ، فقد طرأ على الموقف منافس جديد من الأشراف المغمورين ، فما لبث أن انتزع السلطة من أيديهما معاً وحكم البلاد باسم تيودور !

وظلت الحروب الأهلية مستعرة فى سائر أنحاء البلاد ، إلا أن سلطان النجاشى الجديد كان يزداد اتساعاً على مدى الأيام ، فبسط نفوذه على مقاطعتى غوندار وجوجام ، ولم يبق له منافسون ذوو بأس سوى رأس

مقاطعة تيجرى ، وحاكم ولاية شوا ؛ وكان كلاهما طامعاً فى العرش ، يبغى إزاحة الآخر عن طريقه ، إلى أن ظهر الرأس كاسا (تيودور) ، واستمال إليه المطران ، وعاهده على طرد جميع المبشرين الكاثوليك من الأراضى الحبشية ، فقام بتتويجه وأذاع على الناس أنه ظل الله على الأرض!

ولما استتب له الأمر ، نقل العاصمة من غوندار إلى مجدالا ، الواقعة على المنحدر الشرقى من الهضبة الحبشية ، وقام بتحصينها ، وأعاد بناء الكنائس التى كانت قد تهدمت خلال الحروب الأهلية .

وكان النجاشى تيودور يضع نصب عينيه ثلاثة أهداف آلى على نفسه أن يبلغها مهما كلفه الأمر حتى يوطد أركان ملكه : كسر شوكة النبلاء ، وإكراه قبائل الغالا على اعتناق المسيحية ، ثم إبعاد المسلمين الذين يأبون الارتداد عن دينهم إلى خارج البلاد . . .

وما كانت هذه الأهداف بعسيرة البلوغ على شخص مثل تيودور ، خلق ليكون زعيما مسموع الكلمة ، قوى البأس ، شديد التعصب لدينه ؛ فما زال بأعدائه حتى أفناهم أو اتخذهم أسرى ، ودان له الرؤوس وحكام الأقاليم النائية ، وبلغ أوج سلطانه خلال عام ١٨٦٠ ، فتملكه الغرور ، وأرخى العنان لغرائزه الشريرة ، فراح يعاقر بنت الحان ليلا ونهاراً ، واتخذ لنفسه عشيقة من الغالا ، ما كان ليتورع عن عرض مباذله معها جهاراً ؛ ثم تسلط عليه الوهم ، يصور له أنه محوط بأعداء يحيكون له الدسائس ويعملون على اغتياله ، فيبطش بهم دون ذنب جنوه ، ويحرق الناس بالآلاف أحياء !

ولم تكن أنباء هذه المباذل والمذابح تصل إلى أوربا إلا بعد حين ، مشوهة مبتورة ، حرارتها وتفقد عناصر إثباتها ، وتتلاشى آثارها فى خضم الأحداث المالمية . . .

من أجل ذلك كانت الحكومة البريطانية عل جهل بالأمور عند ما أوفدت الكابتن كامرون عام ١٨٦٢ إلى البلاط الإمبراطورى ، ليخطب ود النجاشى ويقدم إليه وساماً رفيعاً من الملكة فكتوريا .

فلما حظى الرسول بالمثول بين يدى النجاشى ، حمله تحياته إلى ملكة الإنجليز ، وكاشفه بأن سياسته تستهدف القضاء على الأتراك والمصريين ، واقترح على صاحبة الجلالة فى كتابه إليها أن يوفد سفارة حبشية إلى عاصمة ملكها . . .

وكان إهمال وزارة الخارجية البريطانية الرد على الكتاب الإمبراطورى ، هو السبب الرئيسى فى فشل الحملة التى جردها الإنجليز على ماجدالا ؛ فعند ما وصلت أنباء نزولها على البر عام ١٨٦٤ ، طلب تيودور أن يأتوه برد ملكة الإنجليز على كتابه ، فلما قيل له إن جلالتها لم تحمل قائد الحملة هذا الرد ، ثارث كرامته واعتبر هذا الإهمال اهانة موجهة إلى شخصه ، فصب جام غضبه على رأس الكابتن كامرون وصحبه ، وأمر بسجنهم فى قلعة ماجدالا !

فجردت لندن حملة انتقامية على النجاشى تحت قيادة سير روبرت نابيير ، فنزلت إلى البر جنوبى مصوع على مسيرة ٥٢٠ كيلو متر من قلعة ماجدلا ، بيت القصيد ؛ وقد لاقى الإنجليز أهوالا لا حصر لها

فى هذه المناطق الجبلية الوعرة ، إذ كانوا يتسلقون ذرا الجبال الشاهقة ، فتعترض طريقهم الأخاديد العميقة التى يحرس أعاليها نفر من جنود النجاشى لا يتجاوز عددهم فى أغلب الأحيان أصابع اليدين . . .

وأخيراً تقابل الجيشان ، وكان الإنجليز يعسكرون فى واد سحيق ، والأحباش يسيطرون على قمة الجبل وسفحه الذى ينحدر إلى الوادى ؛ وظن تيودور أنه بالغ من أعدائه ما يريد ، وإذا بنيران المدفعية الإنجليزية تحصد رجاله كسنابل القمح ، فيتساقطون بالمئات حول جواده ، ولما رأى الإمبراطور اندحار جيشه وتخلف الرؤوس الأحباش عن نجدته ، أطلق على نفسه رصاصة أودت بحياته ، فدخل الإنجليز ماجدلا صبيحة يوم عيد الفصح عام ١٨٦٨ .

وكان هم سير روبرت إطلاق سراح الإنجليز المعتقلين ، فوجد معهم الإمبراطور يوحنا الثالث ،وكان قد قضى فى السجن عشرين عاماً، فاستنجد بالقائد الإنجليزى ليعيد إليه عرشه المغتصب ، ولكن نابيير أعرض عنه ولم يعره التفاتاً ، فما كان له وقد أنجز مهمته المحدودة أن يقحم نفسه فيما لا يعنيه من شئون البلاد ، فحمل من غنائم القصر ما خف حمله وغلا ثمنه ، وعاد على رأس جيشه إلى شاطئ الصومال ، بعد أن قضت الحملة فى الحبشة نيفاً واثنى عشر شهراً . . .

النجاشي يواجه الدول الأجنبية

١٨٧٠ – ١٩١٦

انتهى الصراع بين الرؤوس وحكام الولايات بارتقاء الرأس تيجرى عرش الحبشة باسم يوحنا الرابع عام ١٨٧٢ .

وكان على غرار سلفه تيودور ، بطلا مغواراً لا يشق له غبار فى ساحة الوغى ، ويتحلى بفضائله دون مباذله ، غير أنه لم يجد فرصة إيجابية واحدة ليضع مواهبه فى خدمة بلاده ، فقد كان أكثر الوافدين عليه من الأجانب فى ذلك العهد من ذوى المآرب السياسية : يجلبون له الآلات والمعدات والأسلحة الحديثة من بارمنجهام وليبزج وليل وبروكسل ، ليتخذوها وسيلة لعرض مشروعات معاهدات سياسية أو اتفاقيات تجارية مع حكومات بلادهم ؛ فظل طوال عهده على حذروتربص من هؤلاء الأجانب الطامعين فى خيرات بلاده البكر !

وكانت مصر أول الدول التى ناصبته العداء وشهرت الحسام فى وجهه، فقد كان إسماعيل خديو مصر فى ذلك الوقت على عكس سلفه سعيد : شديد الطموح واسع المطامع ، فأوعز إلى الباب العالى أن يتنازل له عن سيادته الصورية على شاطئ البحر الأحمر ، فى مقابل مبلغ من المال ؛ ثم أرسل حملة إلى تلك الأصقاع فاحتلت بربره وهرر ، وبذلك حاصر

أملاك النجاشى يوحنا الرابع من الشرق والجنوب ، ثم قرر أن يتجه صوب الشمال ، فانطلق الجيش المصرى إلى المناطق الجبلية حيث اعترضه الأحباش الذين يمتازون بمعرفة دروب الجبال ومسالكها والقتال فيها ، فتغلبوا على المصريين (١٨٧٥ و ١٨٧٦) دون أن تحسم الأمور بين الفريقين فى معركة فاصلة .

وظلت الجبهة المصرية هادئة خلال ست سنوات ، حتى نشبت الثورة العرابية عام ١٨٨٢ واحتل الإنجليز مصر ، ثم اشتعلت ثورة المهدى ، فاستولى الدراويش على السودان من الخرطوم حتى حدوده الجنوبية ؛ غير أن هؤلاء الجيران الجدد لم يكونوا ليثيروا قلق يوحنا الرابع ، بل لعله رأى فى وجودهم على تخوم مملكته مزية لا يستهان بها ، إذ نصح الإنجليز للحكومة المصرية بعد مصرع غوردون فى الخرطوم ، بالعدول عن مشروعاتها فى جنوب البحر الأحمر ؛ فانسحب المصريون من مدينة هرر والمنطقة الساحلية ؛ فزالت بذلك العقبات التى كانت تحول دون توسع الحبشة .

على أن بوادر خطر آخر كانت قد ظهرت فى الأفق ، فقد شقت قناة السويس عام ١٨٦٨ ؛ فأصبح البحر الأحمر طريقاً ملاحياً دولياً له خطره وأهميته ، بعد أن كان بحيرة مغلقة ؛ كما اشتد الصراع الاستعمارى بين الدول الأوربية التى لم تترك مكاناً خالياً فى أفريقيا إلا عملت كل ما تستطيع لتوطيد أقدامها فيه .

فكانت النتيجة أن وجد يوحنا الرابع بلاده محصورة بين أسوار مثلث من المستعمرات الأفريقية : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ؛

وكل دولة منها تسعى بكل ما تملك من قوة وحيلة للقضاء على استقلال الحبشة التي كانت فى اعتبار الاستعمار الأوربى يومئذ شوكة فى الجنب ؛ ولكن عبء الدفاع عن هذا الاستقلال لم يقع على عاتق يوحنا ؛ بل على كاهل خلفه منليك الذى كان قد فر من المنفى فى عهد تيودور ونادى بنفسه أميراً على مقاطعة شوا ، ثم ظل بعد ذلك بمنأى عن الحروب الأهلية التى اشتبك فيها بقية الأمراء وانتهت بارتقاء يوحنا الرابع عشر الحبشة . . .

وقد اصطفى منليك مستشاراً فرنسياً له ، فنصحه بأن ينتهز فرصة صراع الأمراء حول العرش ليوسع رقعة إمارته ويضم إليها أراضى الغالا الغنية الواقعة على تخوم المقاطعة جنوباً وغرباً .

وكان هناك جماعة من الأفاقين الفرنسيين ، فأخذوا يشترون الأسلحة القديمة من الأسواق الأوربية ويبيعونها للأمير بأضعاف أثمانها . . .

ولم يقنع منليك بالغارات أو الحملات التأديبية ؛ بل كان غزوه لتوسيع رقعة ملكه ، وكلما دانت له مدينة أقام فيها حامية من جنده يبيعون الرقاب بالمال ويفرضون الجزية .

ولما ترامت أنباء هذه الغزوات إلى يوحنا الرابع ، رأى أن يتفق مع منليك اتقاء لشره ، فعقد معه اتفاقية حددت فيها أملاك الطرفين فى عام ١٨٨٢ ، وزوج ابنه البالغ من العمر اثنى عشر عاماً بابنة منليك (الأميرة زاوديتو) التى لم تكن قد بلغت السابعة بعد ، كما نصت الاتفاقية على أن يخلف منليك يوحنا الرابع على عرش الحبشة !

وكان الإيطاليون آخر من جلس فى مأدبة الاستعمار فى أفريقيا

الشرقية ، فاشترت إحدى الشركات الإيطالية ميناء عصب الصغير فوق بوغاز باب المندب ثم باعته لحكومة روما ، وأوفدت الحكومة الإيطالية إلى منليك بعثة لعقد اتفاقية تجارية ، بغية الحصول على مساعدة الأمير فى دعم حركة التبادل التجارى فى هذه المناطق .

وفى ١٨٨٤ احتل الإنجليز ، لمدة قصيرة ، المنطقة الساحلية المسماة بإريتريا حالياً ، وكانت الحاميات المصرية معسكرة فى هذه المنطقة منذ عهد الثورة المهدية ، فلما تم لهم إجلاء المصريين عنها ، غادروا البلاد وأوعزوا إلى الإيطاليين أن يعملوا على توسيع رقعة أملاكهم فى المنطقة الساحلية واحتلال ميناء مصوع ؛ وكان المهديون قد تنازلوا عن هذه المنطقة نفسها للإمبراطور يوحنا الرابع !

فلما نزل الإيطاليون إلى البر فى ١٨٨٥ أدرك النجاشى أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن ذلك التبادل التجارى المزعوم لم يكن إلا قناعاً زائفاً يخفى وراءه مشروعات استعمارية خبيثة ، تهدف إلى التغلغل فى صميم الأراضى الحبشية بدعوى حماية طرق القوافل .

وحدث فى ذلك الحين أن قبض أحد الرؤوس فى ولاية الشمال على أعضاء بعثة علمية إيطالية كانت قد تسللت عبر الحدود فى ولايته ؛ فأرسلت الحكومة الإيطالية فرقة مؤلفة من ٥٠٠ جندى لإنقاذ أعضاء البعثة ، ولكن الأحباش كانوا لهم بالمرصاد ، فاشتبكت قوات الطرفين فى معركة دوجالى (٢٦ يناير ١٨٨٧) التى أبيد فيها الإيطاليون عن بكرة أبيهم !

ولما وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى روما ، أصيبت الحكومة بذهول ،

ثم بادرت بإرسال حملة عسكرية إلى مصوع للثأر ، وحاول الإنجليز أن يحولوا دون القتال فلم يفلحوا ، إذ كانت القوات الإيطالية قد تجاوزت حدود الحبشة وتوغلت فى أراضيها . . .

وكان الرأى – فيما يبدو – قد استقر على تدبير جديد يهدف إلى التفاهم مع منليك واستعدائه على الإمبراطور يوحنا ؛ فأوفدت القيادة الإيطالية إليه بعثة تخطب وده وتطلب منه العون ، فى نظير مده بالمال وتزويده بالأسلحة والمناداة به إمبراطوراً على الحبشة ، على أن ينزل للإيطاليين عن ميناء أسمرة ، وعن شريط من هضبة تيجرى يرفع من قيمة المستعمرة الإيطالية الفقيرة ، فقبل منليك المال والأسلحة والذخائر ، ولكنه لم يحرك ساكناً ولم يشهر سيفاً فى وجه مواطنه الذى كان سيخلفه على عرش الحبشة عاجلا أو آجلا . . .

وقد حققت الأيام آماله عند ما اشتبك الأحباش بالمهديين فى معركة كادت الدائرة فيها تدور على رجال المهدى ، لولا رصاصة أصابت مقتلا من يوحنا ، فدب الذعر فى صفوف رجاله وفروا هاربين ، وانقلبت هزيمة المهديين نصراً . . .

وقد أفاد منليك من حالة الفوضى التى شاعت فى البلاد على أثر هذه الهزيمة ؛ كما قنع المهدى بما كتب له من نصر ، مكتفياً من الغنيمة بوقوع جثة يوحنا فى يده ، فبادر بإرسال سيفه إلى أم درمان إعلاناً للفوز فى المعركة . . .

وفى أثناء ذلك أقام الإيطاليون عدداً من المخافر الأمامية فى أعالى

البلاد ، وساعدوا منليك على المناداة بنفسه ملكاً للملوك ؛ وعندئذ لم يبق لمنليك عدو أو منافس يخشى بأسه ؛ ولما كان ينتمى إلى إحدى بنات النجاشى داود الذى حكم فيما بين ١٥٠٨ و ١٨٤٠ فقد اعتبر من سلالة الأسرة السليمانية الملكية ، وخلا له الجو فصار صاحب الكلمة المسموعة ، مؤيداً بقوة رجاله وجيش حليفه رأس مقاطعة شوا .

وما لبث الإيطاليون أن عقدوا مع النجاشى معاهدة أوشيالى التى تهيئ لإيطاليا أن تكون صاحبة السلطة ، وأن تبسط على الحبشة حماية واقعية ؛ فقد نصت إحدى مواد هذه المعاهدة على « أن يلجأ النجاشى لوساطة الحكومة الإيطالية فى كل مفاوضات تجرى بين حكومة بلاده وحكومات الدول الأجنبية » !

ولم يمض على توقيع هذه المعاهدة شهر حتى أوفد منليك ابن أخته الرأس ماكونن حاكم هرر إلى روما ، حيث عقد مع الحكومة الإيطالية اتفاقية تقضى بأن تقرض إيطاليا النجاشى أربعة ملايين من الفرنكات (حوالى ١٦٠ ألف جنيه) ، بضمان المكوس التى تجبيها جمارك هرر ، وفى حالة التوقف عن سداد الدين ، تصبح هرر ملكاً لإيطاليا !

وأرسل همبرت ملك إيطاليا إلى النجاشى هدية تتألف من ٢٨ مدفعاً و ٣٨ ألف بندقية (وهى الأسلحة التى استخدمها فيما بعد وأدت إلى مذبحة عدوة التاريخية) .

وفى اليوم التالى أذاعت إيطاليا على العالم أجمع أن الحبشة أصبحت تحت حمايتها !

وفى ١٨٩٠ ، تحرك منليك على رأس جيشه لقمع ثورة قام بها الرأس مانجاشا ، حاكم مقاطعة تيجرى ، ولما تم له النصر وتوطدت قدماه ، أوفد رسلا إلى بعض البلاد الأوربية لجس نبض حكوماتها توطئة لعقد اتفاقيات معها ، فاستجابت له فرنسا وروسيا ، وأوفدتا مندوبين عنهما إلى الحبشة لإجراء المفاوضات ، فاحتجت إيطاليا احتجاجاً شديداً ، وبادرت بإيفاد الكونت أنتونلى إلى النجاشى لإبلاغه أن هذا التصرف من جانبه يعتبر خرقاً لمعاهدة أوشيالى ؛ فكان رد الإمبراطور : إن نص المعاهدة باللغة الأمهرية هو الوحيد الذى له الحجية ، ويقضى بأن يكون « للإمبراطور الحق فى استخدام وساطة إيطاليا . . . إلخ » ، لا كما يزعم النص الإيطالى الذى يوجب هذه الوساطة .

وسكت الإيطاليون على مضض ، بيد أن نشاطهم ازداد خلال السنوات الثلاث التالية ، واتضحت للنجاشى نياتهم السيئة ورغبتهم فى مناوءته والكيد له وتوسيع رقعة إريتريا على حساب أراضيه ، فاستشاط غضباً وقرر أن يقضى على هذا العبث بحد السيف ، فلما شعر الإيطاليون بذلك ، عملوا على إرضاء النجاشى ، فأرسلوا له هدية من الذخيرة مقدارها مليونان من القذائف ، وكان ذلك غاية أمانى الإمبراطور ، فما لبث أن قام بوفاء هذا الدين فأعلن فسخ معاهدة أوشيالى !

وقد بسطنا فيما سبق ، الظروف التى لابست النزاع الإيطالى الحبشى فى كتاب (زعماء العصابات الاستعمارية) ، فنكتفى هنا بالإشارة إلى أن حاكم مقاطعة أريتريا (باراتيرى) أساء تقدير قوة النجاشى ، كما كان

يعتمد فى تدبيره على ثورة الحكام والرؤوس على مليكهم فى حالة اشتباك القوات الإيطالية مع جيش النجاشى ؛ ولكن منليك كان أبعد نظراً وأوسع حيلة من خصمه ، فأذاع على زعماء العشائر وحكام الولايات منشوراً دورياً فضح فيه ألاعيب الاستعمار الأجنبى ومشروعاته الخبيثة ؛ فأثار هذه المنشور موجة من الوطنية أشعلت النفوس حمية وحماسة ، فالتفت القلوب حول منليك ، ووقفت جيوش الأمراء على أهبة الاستعداد لمعونته حين تحين الساعة الموعودة . . .

وفى ٢٢ فبراير ١٨٩٦ تسلم بارا يتيرى برقية من كريسبى رئيس الوزراء يطالبه فيها بنصر حاسم على جيوش « البرابرة » ، فقرر القائد الإيطالى أن يهاجم عدوه (عاصمة ولاية تيجرى) على غرة ، واختار لذلك يوم عيد دينى (أول مارس) ظاناً أن جميع أفراد الجيش سيهرعون فى ذلك اليوم إلى المدينة المقدسة (أكسوم) ، وأن ما لديه من عتاد عصرى كفيل بالقضاء على قوات النجاشى ، على نحو ما حدث فى عهد سير روبرت نابيير الإنجليزى . . .

وبزغ فجر ٢٩ فبراير وقوات باراتيرى ، وتتألف من ١٤٥٠٠ مقاتل ، تهاجم عدوة من ثلاث جهات ، وترابط فرقة منها فوق ربوة عالية تطل على واد سحيق ، وتحيط ثلاثتها بالتلال التى تقع عليها مدينة عدوة .

وقد خيل للقائد العام أنه مسيطر على الموقف تماماً ، حين فوجئ بحمم من النار تتساقط على جناحه الأيمن ولا يدرى من أين تأتيه ، وإذا برجال النجاشى يتسلقون سفح الربوة من جميع نواحيها ، فتناثرت طلقات

بنادقهم تحصد الأرواح ، فدب الذعر فى صفوف الإيطاليين وانحدروا نحو الأخاديد الضيقة التى يملك الأحباش نواصيها ، فانهالت عليهم القذائف النارية وتكدست الجثث بعضها فوق بعض ، ولم يسلم من المجزرة الهائلة سوى فلول خيالة من الإيطاليين !

وتصل أنباء الهزيمة المنكرة إلى روما ، فيشتد السخط على كريسبى ، وتغالى الصحف فى تقدير قوة منليك العظيم ومدى فوزه على البيض ، وتنخفض الجباه ذلا وعاراً . . .

ولسنا نجد فى وصف تلك الحالة الأليمة فى إيطاليا ، أروع مما كتب جبرييل دافونزيو شاعر إيطاليا وأحد الناجين من معركة عدوة ، فى رسالة بعث بها إلى جندى سيق فيما بعد إلى جحيم أفريقيا ، يقول له فيها : « عليك يا بنى أن تمحو العار الذى لحق بمواطنيك على أيدى الأحباش ، فما زال أثر الكى فى جسدى ، وسيبقى حتى مماتى ! »

واضطرت إيطاليا لتوقيع معاهدة الصلح المهينة فى أكتوبر ١٨٩٦ وفيها تعترف بفسخ معاهدة أوشيالى وسيادة الحبشة الكاملة على أراضيها ، واستقلالها التام . . .

وأعاد النجاشى ١٨٦٥ أسيراً إيطالياً ، جعل الأحباش أكثرهم خصياناً ، جرياً على تقاليدهم ، على الرغم من نواهى منليك !

هذا ما كان من أمر الأسرى الإيطاليين ، أما الأسرى من سكان المستعمرة الذين كانوا يحاربون فى صفوف الإيطاليين ، فقد اعتبروا خونة ، وأمر الإمبراطور ببتر أذرعهم اليمنى وسيقانهم اليسرى !

وعلى الرغم من ذلك نص فى ملحق معاهدة الصلح على أن المفاوضين الإيطاليين يعترفون بأن الأسرى لاقوا على يد إمبراطور إثيوبيا رعاية تامة ومعاملة إنسانية كريمة ، كما أنفق عليهم من ماله الخاص ، ويترك جلالة الإمبراطور لحكومة روما حرية تقدير النفقات التى تحملها جلالته ، وتعويضه عما بذل من تضحيات فى سبيل هؤلاء الأسرى !

وكانت ثمرة النصر أن ظهرت الحبشة على خريطة العالم دولة ذات كيان وبأس ، وهذا منطق القوة الذى لا يعترف الأوربيون بغيره ؛ فاضطرت الدول الأوربية إلى إيفاد مبعوثيها المفوضين إلى أديس أبابا (ومعناها : الزهرة الجديدة) التى بناها منليك عام ١٨٨٣ للإمبراطورة ، فصارت عاصمة للإمبراطورية الحبشية منذ ذلك العهد .

وكان الفرنسيون أول من هرعوا إلى العاصمة ، فقصد إليها حاكم الصومال الفرنسى ، وأعقبه الأمير هنرى أورليان حاملا إلى الإمبراطور هدية رائعة من رئيس الجمهورية الفرنسية ، ثم توالى حضور رجال الأعمال من شتى الأجناس ، وقامت حرب دبلوماسية شعواء بين مبعوثى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، كل يبغى بسط نفوذه والاستئثار بحظوة النجاشى ، وكان للفرنسيين أوفر حظ من ذلك ، إذ فازت إحدى شركاتهم بامتياز الخط الحديدى بين جيبوتى وهرر ، ولم تلبث الشركة أن تنازلت للحكومة الفرنسية عن حقوقها ، فأثار هذا غضب الإمبراطور وحمله على إهمال المشروع لكيلا يدع مجالا لتدخل إحدى الحكومات الأجنبية فى شئون بلاده الداخلية . . .

وبعد أربع سنوات تم الاتفاق (عام ١٩٠٦) على أن تتولى فرنسا إنشاء الخط بين جيبوتى وهرر ، على أن يخول البريطانيون والطليان الحق فى إنشاء خطوط فرعية تمتد من هذا الخط الرئيسى شمالا وجنوباً إلى مستعمراتهم ، وهى مشروعات ظلت حبراً على ورق ولم تخرج قط إلى حيز التنفيذ ؛ على أن الخط الرئيسى نفسه قد صادفته عقبات فنية ومالية وسياسية فلم يصل إلى أديس أبابا إلا فى غضون عام ١٩١٨ .

وكانت بريطانيا الدولة الثانية التى أولت الحبشة بالغ الاهتمام ، بعد هزيمة الإيطاليين فى عدوة ، فأوفدت بعثة برياسة رينيل رود ، حملت إلى النجاشى هدايا ثمينة حظيت بتقديره ونالت إعجابه ، على عكس شعور الرأس ماكونن الذى كان يحذر الإنجليز ويقول عنهم إنهم كالقط : إذا داعبته استكان وبقى على ألفته ، فإذا أبعدته أنشب أظفاره فى يدك !

وقد نجحت مداعبة القط ، فظفرت البعثة الإنجليزية باتفاقية حسمت مشاكل الصومال الإنجليزى ورسمت الحدود بينه وبين الحبشة .

وفى عام ١٩٠٢ نجح الإنجليز فى الحصول على حقوق فى مياه النيل الأزرق الذى يحمل مياه الأمطار الحبشية الغزيرة ، والطمى الذى يحيى تربة مصر والسودان ، حيث يزرع القطن الذى يغذى مصانع لانكشير ؛ وقد تعهد الأحباش بألا يقدموا على عمل من شأنه تحويل مجرى النيل الأزرق ، فى أى جزء من أجزائه ، إلى أن يلتقى بنهر النيل ، وبقيت الحالة على ذلك فلم يخطر ببال أحد أن يقيم على بحيرة تسانا خزاناً لضبط مياه الفيضان قبل الحرب العالمية الأولى .

ثم جاء الروس ومبعوثو السلطان العثمانى إلى بلاط النجاشى فى أعقاب الإنجليز ، كما عاد الطليان يعرضون عليه مشروعات عمرانية لإنماء موارد الحبشة . وحتى الدراويش أوفدوا إليه رسولا ، فأصبحت أديس أبابا قبلة الأنظار ، يحج إليها الأجانب من كل حدب وصوب ؛ على أن منليك لم يكن يركن إليهم أو يثق فى مشورتهم ، بل كان يكرم وفادتهم ويلزم فى الوقت نفسه جانب الحذر منهم ، فإذا منح امتيازاً لبعض الأجانب حرص على أن تكون نصوصه فضفاضة تحتمل جميع التأويل ، وإذا استشعر عبثاً أو التواء فى القصد قبض يده ونكث بوعده . . .

وكثيراً ما كان يؤجر الأراضى الواسعة ويقبض الإيجار سلفاً ، ثم لا يتورع عن تأجير الأراضى نفسها لشركة أخرى ، وحجته فى ذلك أن رجال القبائل يتفاهمون فيما بينهم على حقوق كل منهم فى المرعى ، فلم لا يتفاهم الأوربيون ؟ وهكذا كانت عقود الامتيازات الممنوحة لا تساوى قصاصات الورق التى كتبت عليها ، فيما عدا النذر اليسير منها ، كامتياز الخط الحديدى الفرنسى ، وامتياز بنك الحبشة الذى ظفر به البنك الأهلى المصرى فى سنة ١٩٠٥ ولم يزل مزدهراً واسع النشاط حتى اليوم .

على أن منليك كان يزداد جشعاً كلما تقدمت به السن ، وكان يفرض الضرائب الباهظة على المتاجر ، ويلح فى مرور البضائع عبر بلاده حتى يتقاضى عليها العوائد ، هذا إلى دأبه على توسيع رقعة ملكه ،

فامتدت ممتلكاته إلى منطقة بنى شنجول التى تطل على حوض النيل الأبيض غرباً ، وخضع له أمراء (كافا) العصاة ، وبالاختصار : امتدت حدود الحبشة إلى بحيرة رودلف ، وجرد حملات تأديبية على سكان الصومال الذين كانوا تحت قيادة الزعيم محمد عبد الله الشهير بالمجذوب .

وكان قواده يعودون مظفرين من غزواتهم ، حاملين إليه مصورات جغرافية عن مناطق مجهولة تحيط بمملكته ، فيضع عليها خاتمه ويعتبرها ضمن أملاكه ، ثم يأخذ فى مساومة الدول للاعتراف بحقوقه عليها ، كلما وجد فرصة سانحة للمساومة ، وماذا يضر بعض الدول إذا اعترفت للنجاشى بملكية بلاد لا تربطها بها رابطة وليس لها فيها مصلحة ، مادام هذا الاعتراف يهيئ لها فرصة للظفر ببعض الامتيازات فى بلاد النجاشى ؟

وعلى كل حال ، فقد سجلت الخرائط الحديثة تلك الأراضى المجهولة ضمن أملاك الحبشة ، فأصبحت حدودها واضحة المعالم إلا من ناحية الصومال الإيطالى ، وكان هذا هو السبب الذى أدى إلى الاضطرابات التى وقعت فى منطقة (وال وال) وتولدت عنها شرارة الحرب الإيطالية الحبشية فى أواخر ١٩٣٤ .

وقد قلنا فيما سبق إن منليك قد صار بعد دعوى الحماية الإيطالية على الحبشة ، شديد الحذر من الأجانب ، لا يقبل أى مساس بحقوق السيادة أو باستقلال بلاده ، ولكن هذه الصلابة بدا عليها الوهن عندما

اشتدت عليه وطأة الشلل الذى أصابه عام ١٩٠٦ وأقعده عن العمل والتفكير بعد عامين . . .

فنى مستهل مرضة ، مات ماكونن رأس مقاطعة هرر ، ومانجاشا رأس تيجرى ، وكان لكل منهما أولوية ارتقاء عرش الحبشة بعد منليك ، وكان نفوذ ألمانيا وقتئذ يزداد فى أديس أبابا ، فقلقت الدول الأوربية صاحبة المستعمرات المحيطة بالأراضى الحبشية ، وتناوضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، على غير علم من النجاشى ، وانتهت مفاوضاتهما باتفاقية تقضى باعتراف هذه الدول باستقلال الحبشة ، إلا إذا حدثت منافسات طارئة أو تغيرت الأحوال داخلياً ، فإن لكل دولة من هذه الدول — فى هذه الحالة — الحق فى اتخاذ التدابير الكفيلة بصون مصالح رعاياها ، على ألا تنفرد دولة من الدول الثلاث بالأمر إلا بعد مشاورة الدولتين الأخريين ؛ كما تناولت الاتفاقية تحديد مناطق النفوذ فى الحبشة اكل دولة من الدول الثلاث ورسمت لها حدوداً دقيقة !

ولما نمى إلى النجاشى خبر هذا الاتفاق استشاط غضباً ، ولكن المرض كان قد سلبه الحزم والجرأة ، فخضع للأمر الواقع ، وكتب إلى حكومات لندن وباريس وروما يشكرها على إبلاغه أمر الاتفاق الذى عقد بينها ، واعترافها باستقلال بلاده وسيادتها !

وعلى الرغم من مرضه الشديد احتفظ بمقاليد الحكم ثمانية عشر شهراً بعد هذه الاتفاقية ، إلا أنه فى خريف ١٩٠٧ عين حكومة تعاونه على تصريف شئون البلاد ، وفى الصيف التالى دعا جميع الرؤوس لعقد

اجتماع مشهود ، أعلن فيه أن الخلافة من بعده للصبي ليج يسوع ، البالغ من العمر اثنى عشر عاماً ، على أن تكون الوصاية عليه للرأس تيساما . ثم قال إن هذه هى رغبته الأخيرة ومن عصاها نزل عليه غضب الله والكنيسة ، ومن عصا أوامر ولى عهده استحق اللعنة السماوية !

وحين تراخت قبضة منليك ، بدأت الدسائس تحاك ، وصراع النفوذ يستعر ويشتد أواره ، ومؤامرات الرؤوس تستفحل وتتسع حلقاتها ، غير أن الخوف من الإمبراطور العليل ، واحتمال استرداده لقواه كان يحول دون المضى فى مناوراتهم .

وفى غمرة هذه الأحداث ، كانت الإمبراطورة تايتو قد جمعت زمام السلطة بين يديها ، وكانت جديرة بما اتصفت به من بطولة ، منذ قادت بنفسها فرقة اشتركت فى تأديب الثوار بمقاطعة تيجرى عام ١٩٠٢ . . .

وكان أول ما يهم تايتو أن تحمل رؤوس الحبشة على الاعتراف بالأميرة زاوديتو إمبراطورة على عرش الحبشة ، بدلا من ليج يسوع ، بدعوى أنها ذات مواهب نادرة وقدرة عظيمة على تولى شئون الحكم ، ولكنها لم تفلح فى إقناعهم . . .

ولم تلبث الفوضى أن عمت ، واستفحل الفساد ، وانتشرت تجارة الرقيق إلى حد دفع الدول الأوربية إلى الاحتجاج ، وهكذا أخذت تنمحى مسحة المدنية الحديثة التى اتسمت بها الحبشة فى عهد منليك وعهد خليفته ليج يسوع الذى لم يدم طويلا ، ولم يبق منها إلا آثار

قايلة ، لنظام البريد ، والشبكة التليفونية ، وغاز الاستصباح الذى يستخدم فى إنارة بعض الطرقات الرئيسية فى العاصمة ، ثم تطعيم السكان ضد وباء الطاعون البقرى ، وضد الجديرى الذى أصاب البلاد فى مستهل ١٩٠٣ .

ولم يكن ليج يسوع يشبه سلفه فى قوة الشكيمة واتساع الحيلة ، ومع هذا فقد تولى العرش قبل أن يتم السابعة عشرة ، بعد موت الوصى وقرار مجلس الوزراء بأنه أصبح راشداً ولا داعى لتعيين وصى جديد عليه ، فحكم البلاد وسط تيارات الدسائس المتلاطمة ، وكان فاسقاً ، زير نساء ، فقام على رأس نفر من الحاشية برحلة طويلة إلى مقاطعة (جميرا) الإسلامية ، حيث عقد على عدد من الفتيات ، أو اشتراهن بماله ، ولا يعلم إلا الله طبيعة هذه الصفقات التى عقدها ، فإنها صفقات لا شبيه لها فى الأمم المتحضرة .

ثم لم يلبث أن اعتنق الإسلام ، فأثار بذلك سخط الرؤوس ، وراجت عنه الشائعات المختلفة ؛ وزاد الطين بله حينما طرد المستشارين الذين كانوا عوناً لأبيه منليك ، فاشتعلت بسبب ذلك كله نيران الثورة فى مختلف أرجاء البلاد . . .

وقامت الحرب العظمى ، فظلت الحبشة بمنأى عنها ، لأن الدول الأجنبية كانت فى شغل شاغل بما هو أهم . . .

وفى عام ١٩١٦ أذاع ليج يسوع أنه من سلالة النبى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وأمر كتاب القصر أن يضعوا لنسبه شجرة تمتد إلى

الرسول ، تأييداً لدعواه ، ثم لبس العمامة وانتطق بالخنجر كما يفعل الأمراء المسلمون ، وطلق زوجته المسيحية ، كما طلب إلى محمد عبد الله المجذوب أن يزوجه ابنته . ثم قدم إلى قنصل تركيا علم الحبشة الجديد ، وعليه عبارة (لا إله إلا الله) ، وطلب إليه أن تكون بلاده خاضعة لسلطة شيخ الإسلام بالقسطنطينية .

وكان مبعوثو الدول يرقبون تصرفات النجاشي الشاب بعين الحذر ، ولا يستطيعون القيام بعمل مشترك خشية أن يثير الإمبراطور طوائف المسلمين ويعلن الجهاد الديني ، فيجابه الحلفاء متاعب لا قبل لهم بها في مختلف أنحاء العالم .

أما الفريق الآخر الناقم على النجاشي ، فكان على رأسه حاكم مقاطعة شوا، الذى انتهز فرصة غياب ليج يسوع فى المناطق الجنوبية من الحبشة لتأليف جيش يستخدم فى محاربة الحلفاء إلى جانب الأتراك ، فتقدم على رأس جيش كبير إلى العاصمة ، ثم طلبوا إلى المطران أن يحلهم من يمين الولاء الذى قطعوه للنجاشي ليج يسوع ، ونادوا بالأميرة زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة على الحبشة ، على أن يكون الراس تيفرى ابن ماكونن وصياً عليها وولياً للعهد بعدها

وهذا ما حدث ، فقد منح المطران الإمبراطورة الفتية بركاته ، وشلح ليج يسوع وأخرجه من ظل الكنيسة ؛ فلما علم النجاشي المخلوع بذلك ، حمل أمواله وفر إلى بلاد الدناكل . . .

المملكة الحديثة

(١٩١٦ – ١٩٣٤)

وأقيمت حفلات تتويج زاوديتو فى ١١ فبراير ١٩١٧ ، وفى اليوم التالى نودى بالرأس ولدوجرجس وصياً على العرش ، وقيل تعليلا لذلك إن الرأس تيفرى ما زال حدثاً ولا يستطيع أن يحمل أعباء هذا الشرف العظيم ...

ولكن القصر الإمبراطورى لم يلبث أن شهد صراعاً بين تيارات النفوذ الثلاثة : نفوذ الإمبراطورة الشابة ، والوصى ، وفتنورارى وزير الحربية ، ولكل من هؤلاء نفوذ وأنصار تجعل قواهم متعادلة فلا سبيل إلى التمييز بينهم ...

لقد نشأ تيفرى وترعرع فى قصر الرأس ماكونن ، حيث تسللت أضواء المدنية الحديثة ، فتعلق بها ، وجعل هدفه أن تصبح الحبشة ذات يوم دولة عصرية ؛ ولكن ماذا يصنع الأمير المجدد إزاء العنصرين المحافظين فى القصر ، اللذين لا يرضيان إلا بأن يظل القديم على قدمه ؟

إذن فليعمل تيفرى على استكمال أسباب المدنية فى مقاطعة (هرر) ، حتى يحين الأوان وتتهيأ له الفرصة لارتقاء العرش ، وله إلى أن يحين ذاك اليوم ، أن يتنقل أينما شاء فى مختلف البلاد الأوربية ، ويجلب منها كل حديث لملكه الموعود ، فزار الإنجليز فى عدن عام ١٩٢٣ ،

وركب الطائرة أمام أفراد الحاشية وهم ينظرون إليه فى ذهول ، وفى السنة نفسها سافرت زوجته وايزارو مانان إلى القاهرة وحجت إلى القدس ؛ وفى العام التالى أبحر تيفرى إلى إنجلترا ، حيث استعاد تاج النجاشى تيودور الذى كان سير روبرت نابيير قد غنمه بعد فوزه على الأحباش ..

أما فيتوراري وزير الحربية ، فكان على النقيض : محافظاً ، لا يقبل عن النظام الإقطاعى بديلا . . .

وأما الإمبراطورة ، فكانت تؤيد أعداء التجديد حتى وفاة فيتوراري سنة ١٩٢٦ ، ثم أمسكت العصا من وسطها ، فاتخذت لنفسها مستشاراً ألمانياً ، ولكنها لم تلبث أن أقصته حينما تألب عليها مجلس الوزراء وهدد رئيسه بتقديم استقالته ؛ ومنذ ذاك الحين لزمت جانب الحيطة ، معتمدة على مهابتها بوصفها ابنة منليك العظيم ، إلى أن فاجأها الحظ بما لم يكن فى حسابها ، إذ وقع ليج يسوع أسيراً فى يد قائد جيوشها ، فجاء به إليها ذليلا صاغراً يطلب العفو والمغفرة . وكانت الإمبراطورة تود من صميم قلبها أن تتخلص من هذا الخصم العنيد ، لولا المرسوم الذى أصدره منليك ويقضى بألا يحكم بالإعدام على أى أمير تجرى فى عروقه الدماء الملكية ؛ فماذا تصنع ؟ ليس لها من حيلة إلا أن تسلمه لأحد الرؤوس فينزل به قضاءه إذا أراد ؛ فتزداد مهابتها بذلك ؛ إذ تستنزل السخط على الرأس الذى ينافسها فى السلطة ، وتبقى لها كرامتها .

وسمع زعماء العشائر فى مقاطعة هرر بما تنتويه الإمبراطورة ، فأوفدوا إليها رسولا يستحلفها ألا ترسل أسيرها إلى الرأس تيفرى ، وإلا

كانت العواقب وخيمة . . .

وأخيراً استقر رأى الإمبراطورة على أن تعهد به إلى الرأس كاسا حاكم مقاطعة تيجرى ، فأرسلته إليه مكبلا بالسلاسل الذهبية ، على مقتضى التقاليد فى معاملة أفراد الأسرة المالكة . . .

ولما مات وزير الحربية عام ١٩٢٦ ، كان الرأس تيفرى قد استكمل أسباب البأس ، وزود جيشه بالأسلحة الحديثة ، وقضى على الرؤوس الذين كانوا يسعون إلى اقتناص السلطة واحداً بعد واحد ؛ فدان له الجميع ؛ وخضعت زاوديتو للأمر الواقع ، فوافقت على تتويجه نجاشياً . . .

ولم يكن صوت تيفرى مسموعاً فى مجالس الحكم ، حتى ذلك الحين ، إلا فى شئون الدولة الخارجية ؛ وكان قد سمع أثناء مفاوضات الصلح فى فرساى أن المناقشات تناولت بعض المسائل الإنسانية ، ومن بينها تحريم تجارة الرقيق ، وعمليات تهريب الأسلحة بوسائل غير شرعية ؛ فخشى أن يتعلل الأجانب بشيء من ذلك فيتدخلوا فى شئون الحبشة ؛ فبدا له ، بناء على نصيحة بعض مستشاريه الأوربيين ، أن يحث حكومة بلاده على أن تتقدم بطلب لقبولها عضواً فى عصبة الأمم . . .

ودار حول مشروع عضوية الحبشة نقاش طويل فى عصبة الأمم ، فعارضت إنجلترا وسويسرا والنرويج وأستراليا ، بدعوى عدم توافر البيانات عن الحكومة الحبشية وقدرتها على الضرب على أيدى تجار الرقيق ومهربى الأسلحة ؛ وأيدت فرنسا وإيطاليا قبولها ؛ فقال مندوب فرنسا إن قبولها سيؤدى إلى تعزيز سلطة الحكومة المركزية ، ويكون حافزا لها على تحريم

تجارة الرقيق . وقال مندوب إيطاليا : إن تجارة الأسلحة غير محرمة ، وإلا فإن على الدول الأوربية أن تمنع رعاياها من تهريب الأسلحة إلى قلب أفريقيا !

وبعد لأى فازت وجهة النظر الفرنسية الإيطالية ، وقبلت الحبشة بإجماع الآراء عضواً فى عصبة الأمم ، مع بعض تحفظات قليلة ؛ وسنرى فيما بعد أن هذه العضوية كانت غنماً للأحباش ؛ فقد كان لإنجلترا وإيطاليا مصالح هامة فى تلك البلاد ، فالأولى ترنو إلى بحيرة تسانا وضبط مياهها ، والثانية تريد وصل مستعمرتيها فى الصومال والحبشة بخط حديدى يمر بقرب أديس أبابا ، وتمتلك إيطاليا شقة من الأرض على جانبيه .

ودارت المفاوضات بين الدولتين خلال عام ١٩١٩ ، غير أن مركز إيطاليا خلال هذه الفترة كان ضعيفاً ، فآثرت بريطانيا الاحتفاظ بكامل حريتها فى هذه الأصقاع ، فلما اشتد ساعد موسولينى وقويت شوكته ، استؤنفت المفاوضات بين الحكومتين ، وأسفرت عن تبادل مذكرات اعترفت فيها بريطانيا بنفوذ إيطاليا الاقتصادى فى منطقة الخط الحديدى ، على شرط أن تنال بريطانيا فى مقابل ذلك عقد الامتياز الخاص ببناء خزان تسانا ، وألا تعرقل إيطاليا مشروعات الإنجليز فى حوض النيل . . .

وما إن أودعت هذه الوثائق فى سكرتيرية عصبة الأمم ، حتى ثارت ثائرة فرنسا التى اعتبرتها خرقاً للمعاهدة الثلاثية المعقودة فى ١٩٠٦ ، وطالبت بإيضاحات وتأكيدات فى هذا الصدد .

أما الحبشة فقد اعتبرت هذه الاتفاقية إهانة موجهة إليها ، وجاء فى احتجاجها لدى الإنجليز « إن الحكومة الحبشية ما كانت تنتظر أن يجرى اتفاق على قطعة من صميم أراضيها بين دولتين أجنبيتين ! »

ولم يقتصر الأمر على الاحتجاج ، بل تقدم الوصى تيفرى بشكوى إلى عصبة الأمم ، ثم أثار ضجة حول هذه الوثائق ، فاضطرت الحكومة الإنجليزية للتقهقر ، وأعلن مندوبها أن المقصود من عبارة نفوذ إيطاليا الاقتصادى لا يعنى غير ضمان المنشآت الإيطالية فى منطقة معينة وحمايتها من منافسة المؤسسات البريطانية .

وهكذا نجح تيفرى فى استخلاص حق كاد يضيع على بلاده ، كما يدل هذا الحادث على مدى ما يمكن أن تفيده دولة صغيرة من انتمائها لعصبة الأمم ، إذا كانت مصالح الدول العظمى متضاربة فيها .

ونجح تيفرى كذلك فى الميدان الداخلى ، إذ تبين أنصار فيتورارى أن ابن ماكونن كان على حق حينما دفع ببلاده فى تيار المدنية الغربية ، فقد صارت ملء الأبصار ، ملء الأسماع ، فى العالم أجمع ؛ ولم يحد عن جادة الصواب عندما اصطفى جماعة من المستشارين الأجانب ؛ وكان أريبا بعيد النظر حينما حث حكومة بلاده على الانضمام لعصبة الأمم التى نصرته على زمرة المتآمرين على المملكة .

ولم يمض عامان (١٩٢٨) حتى وفقت الدبلوماسية الإيطالية فى عقد معاهدة صداقة مع الحبشة لمدة ٢٠ عاماً . كما تم الاتفاق على أن تقوم شركة حبشية إيطالية ببناء طريق للسيارات ما بين بلدة ديسييه بالحبشة

وميناء عصب الإيطالى ، وفى مقابل ذلك تمنح إيطاليا الحبشة منطقة جمركية حرة فى هذا الميناء ؛ ولا ريب أن المشروع ينطوى على مزايا لا يستهان بها لكلا الطرفين .

واتجه الرأس تيفرى بعد ذلك إلى تقوية الجيش ، فاستدعى بعثة عسكرية بلجيكية لتدريب الحرس الإمبراطورى لكى يكون نواة لجيش عصرى يستخدم الأسلحة الحديثة .

وفى عام ١٩٣٠ أمر تيفرى بإجراء مفاوضات لإنشاء بنك للدولة الحبشية ، وعهد فى الوقت نفسه إلى إحدى المؤسسات الأمريكية دراسة مشروع خزان يقام على بحيرة تسانا ، بيد أن أزمة القطن العالمية حالت دون مواصلة هذه الأبحاث . . .

ولم تكن الشئون الدينية أقل حظاً من الشئون الدنيوية فى نظر تيفرى ؛ فقد طلب تعيين مطران جديد ، والتمس من بطريرك الأقباط زيارة الكنيسة الحبشية ، ابنة كنيسة الإسكندرية الروحية .

وعنى بعد ذلك بتنظيم استيراد الأسلحة ، فوقع مع إنجلترا وفرنسا وإيطاليا إتفاقية تقضى بتحريم استيراد الأسلحة على أيدى الأفراد والهيئات الخاصة ، وأن يكون الحصول عليها بالطرق الرسمية عن طريق الهيئات الدبلوماسية .

كل هذا كان ميسوراً له فى الميدان الخارجى ، ولكن مثل هذه السرعة فى حسم الأمور كانت متعذراً فى الميدان الداخلى ؛ وقد أدرك تيفرى بما أوتى من فطنة أن الشعب شديد التمسك بعاداته وتقاليده التى توارثها

جيلا بعد جيل ، فليس من الممكن أن يفرض عليه الجديد دفعة واحدة ، وإذا أمكن ذلك فى العاصمة فمما لا شك فيه أنه سيلقى مقاومة شديدة فى الأقاليم ؛ يضاف إلى كل ذلك أنه ما دامت الإمبراطورة على قيد الحياة ، والسلطة موزعة بينه وبينها ، فلن يكون صاحب الكلمة المسموعة لدى الرؤوس ؛ إذن فليعتصم بالصبر إلى أن تنقشع الغمة وتتحقق الآمال . .

وجاء اليوم المرتقب ، فماتت زاوديتو فى سنة ١٩٣٠ ، وتوج تيفرى إمبراطوراً على الحبشة باسم هيلاسلاسى ، فشهد حفلات التتويج جميع الأمراء وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، كما جاء دوق جلوستر نائباً عن أبيه الملك جورج الخامس ، ليقدم فروض التهنئة وينحنى أمام الإمبراطور ...

وهكذا أصبح هيلاسلاسى مطلق اليدين فى شئون بلاده ؛ فمنذا الذى يستطيع أن يحول بينه وبين ما يبغى إجراءه من إصلاح ؟

أجل ، إنه الآن السيد المطاع ، صاحب الأمر والنهى ، ولكنه تعلم الحرص وطول الأناة خلال الأعوام التى كان ينتظر فيها ولاية العرش ، ولن يقدم على عمل إلا متئداً ، فقد اتعظ بما جرى لأمان الله فى بلاد الأفغان ، إذا أراد أن يثب بشعبه نحو الحضارة طفرة ، فكان ذلك وبالا عليه ، فخلع عن العرش ليقضى ما بقى من حياته فى المنفى .

وكان حجر الزاوية فى سياسة الإمبراطور أن يوطد أركان الدولة ويبعد عنها أسباب الثورة والعصيان ، فإذا تم له ما أراد من ذلك أدخل ما شاء من النظم الغريبة فى أساليب حياة الشعب ؛ فكان أول ما فكر فيه ملء المناصب العليا فى مختلف الأقاليم برجال من أنصاره ، فكلما خلا



الإمبراطور هيلاسلاسي

منصب عين فيه شخصاً ممن نهلوا من ثقافة أوربا أو عاش فى ربوعها زمناً .

وذهب هيلاسلاسى إلى أبعد من ذاك فى الدستور الذى منحه للشعب فى ١٦ يوليه ١٩٣١ ، إذ جمع الرؤوس والأمراء وأعيان البلاد ، وخطب فيهم قائلا : إن الأباطرة من قبل كانوا يحكمون الحبشة حكماً مطلقاً ، بوصفهم آباء الشعب ؛ ولكن الحال تغير الآن ، فلا بد أن تضطلع الأمة بجانب من مهام الحكم . .

وهكذ شهدت البلاد أول مجلس نيابى لها يجتمع بين الفينة والفينة ليناقش مشروعات القوانين ، وإن كان زمام السلطة الفعلية فى قبضة النجاشى الذى ظل يعتمد على مشورة ذوى الرأى من الأجانب ، كما كان يعتمد على أعضاء السلك السياسى الأحباش فى ملء مناصب القضاء ؛ وكان الناس من قبل يحتكمون فى منازعاتهم إلى رجل البوليس أو إلى أى شخص يقبل المتخاصمان حكمه ؛ فلم يكن يرفع إلى القضاء العالى سوى القضايا الكبيرة ، لضخامة نفقات الدعاوى ، فإذا كان أحد طرفى النزاع أجنبياً ، نظرت الدعوى أمام المحكمة بحضور قنصل بلاده . . .

ومن التدابير التى اتخذها الإمبراطور خلال السنوات الأربع التى حكمها والتى استرعت اهتمام الدول الأجنبية ، ما يتعلق بقمع تجارة الرقيق ، ألغى الرق وحرر أبناء العبيد ، ومنح العبد الحرية بمجرد وفاة سيده . . .

وأهم من ذلك تحقيقه لوحدة الإمبراطورية ، فأصبحت الحكومة المركزية وطيدة الأركان ، تدين لها الأقاليم القريبة والنائية بالطاعة والولاء ، بعد أن تولى شئونها رجال من أولياء النجاشى الصالحين .

النزاع الحبشى الإيطالى

لم تنقطع الحوادث على الحدود الحبشية الإيطالية بعقد معاهدة الصداقة بين إيطاليا والحبشة عام ١٩٢٨ ، وكان لكل حادثة تقع روايتان متناقضتان فى معظم الأحيان ، فليس فى مقدور المؤرخ المنصف أن يميز الرواية الصحيحة من الرواية الزائفة ؛ ومن أجل ذلك لا نستطيع القول بأن العلاقات بين البلدين قد ساءت بسبب الاختلاف فى تفسير مواد المعاهدة ، أو بسبب تتابع حوادث الحدود .

ومهما يكن من أمر فقد استفحل النزاع بين الطرفين بسبب طريق السيارات الذى يمتد من مقاطعة هرر إلى ميناء عصب ؛ وكان سبب النزاع إصرار حكومة المستعمرة الإيطالية على أن الجزء الحبشى من الطريق المار عبر إريتريا إلى الحبشة ، يجب أن يستكمل على أيدى المهندسين الإيطاليين ؛ ولم توافق الحكومة الحبشية على ذلك ، حفاظاً على سيادتها ، محتجة بأن الطليان كلما منحوا امتيازاً طغوا وطالبوا بمزيد من الحقوق ؛ فقد كان الأمر قاصراً فى المعاهدة على الطريق بين ديسييه وميناء عصب ، وها هم أولاء يطالبون بربط ديسييه بالعاصمة الحبشية !

واشتد الجدل وتضاربت الآراء بين الطرفين ، فأخرج الطليان من ملفاتهم القديمة تقارير عن اعتداءات على مواطنيهم ، وغارات مزعومة

على الحدود ، وهكذا عادت قصة الذئب والحمل على المسرح الدولى !

وقد كان حادث (وال وال) هو النقطة التى امتلأت بها الكأس وفاضت ؛ وتفصيل الأمر أن لجنة إنجليزية حبشية مختلطة قامت على رأس ستمائة جندى من الأحباش لرسم الحدود بين الصومال البريطانى والأراضى الحبشية ؛ وكان الطليان قد توغلوا من قبل فى هذه المنطقة لكثرة الآبار بها وأنشأوا فيها عدة نقط حصينة ؛ فلما وصلت اللجنة إلى المنطقة اعترض الطليان وأرسلوا عدة طائرات حومت فوق المكان على سبيل الإرهاب والاستفزاز؛ فآثر أعضاء البعثة السلامة وانسحبوا من منطقة الآبار ، غير أن اللجنة رأت أن تترك فى المنطقة فصيلة من الجند ، حتى لا تثور ثائرة أهالى أوجادين إذ يعتقدون أن فى هذا تسليما بحقوق الطليان فى الآبار والعيون ؛ وفى غمرة هذا الهياج النفسى نشبت المعركة فى ٥ ديسمبر ١٩٣٤

ولو توفر حسن النية من الجانبين لانتهى الحادث بسلام ؛ ولكن الحكومة الإيطالية أصرت على أن تقدم الحبشة اعتذاراً ، وأن ترسل فرقة حبشية لتحية العلم الإيطالى بوال وال ، وأن تدفع غرامة قدرها ٢٠ ألف جنيه !

فرفض الأحباش هذه المطالب جميعاً ، لأن اللجنة التى اختيرت لتحقيق الموضوع لم تثبت مسئولية على الحبشة ؛ ولما اقترحت أديس أبابا عرض النزاع على هيئة تحكيم ، رفضت إيطاليا ، فرفع الأمر إلى عصبة الأمم . . .

وظلت الدعوى راكدة فلم تعرض على بساط البحث عدة أشهر ، وكانت الدول الأوربية تريد إرجاء النظر فى النزاع أطول وقت ممكن ، حتى تهدأ النفوس الثائرة فيتسنى إيجاد تسوية سلمية ترضى الفريقين . . .

ولكن إيطاليا ظنت أن الدول الأوربية بهذا الإرجاء تغض الطرف عن نشاطها فى أفريقيا ، فبادأت بالعدوان ، إذ أرسلت إلى إريتريا عدة آلاف من ذوى القمصان السود ، وقوة كبيرة من الجيش الإيطالى . . .

ثم اتسع نطاق الاستعدادات الحربية فى إيطاليا ، وبدأت صحفها تنشر المقالات الحماسية لاستثارة حمية أبناء الوطن ، وحثهم على الأخذ بثأر عدوة !

وبذلت محاولات دولية عدة ، استرضاء لإيطاليا ، فجاء ردها حاسماً فى بيان أدلى به وزير خارجية إيطاليا ، مؤداه أن سياسة الحبشة وتصرفاتها تحمل فى طياتها الدليل على عداء مستحكم بين البلدين !

وبذلك كشف الطليان القناع عن رغبتهم فى الحرب مهما كانت النتائج !

واتخذ الإمبراطور مقراً لقيادته فى الصفوف الأولى ، ودارت رحى الحرب بين الأسلحة الحديثة الفتاكة وقنابل الخردل الخانقة المروعة ؛ ورأى النجاشى ما نزل بشعبه من هلاك ودمار ، وأيقن أن استمراره فى المقاومة على هذه الصورة يشبه أن يكون حكماً بالإعدام على الشعب كله ؛ فآثر الانتقال إلى ميدان آخر يدافع فيه عن وطنه وحرية شعبه ؛ فذهب إلى جنيف ، ليسمع صوته للعالم الحر ، عسى أن ينتشل أمته من هذه المحنة !

وغادر عاصمة ملكه فى عام ١٩٣٦ ، وقلبه ملىء بالثقة فى عدالة السماء . . .

وظل خارج بلاده خمس سنوات ، إلى أن عاد إليها فى ربيع سنة ١٩٤٢ وقد اندحر أعداؤها وزهق باطلهم ، إن الباطل كان زهوقاً .

وهب نسيم الحرية من جديد على شعب ضعيف ، آمن بحقوقه واستبسل فى الدفاع عنها فأيده الله ، وتلك عاقبة المؤمنين . . .

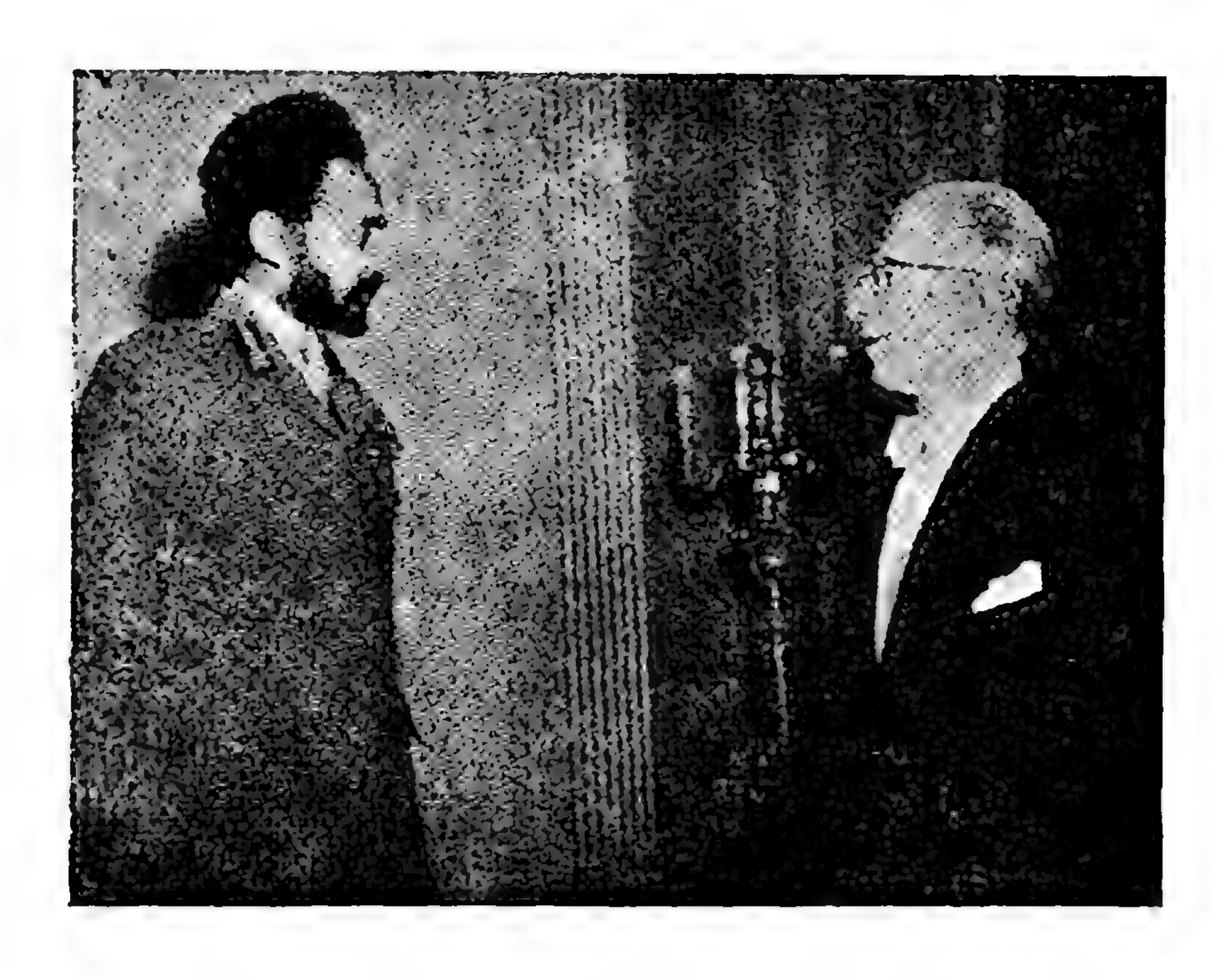
فى أعقاب الحرب العالمية الثانية

حافظت الحبشة على استقلالها منذ القدم ، لأن طبيعة أراضيها الوعرة وما يتخللها من جبال عالية ووديان سحيقة ، كانت تقف سداً منيعاً دون الغزاة الفاتحين .

وعلى الرغم من أن موقع الحبشة الجغرافى وحاجتها الاقتصادية كان من شأنهما أن يدفعا حكومة أديس أبابا نحو الكتلة الغربية ، فإن ماضى بعض الدول الأوربية علمها الحذر ، فلم تعد تأمن جانب أوربا ، واعتمدت فى بعث اقتصادياتها واستغلال مواردها إلى الولايات المتحدة ...

وقد استغلت الولايات المتحدة الفرصة ، فأوفدت بعض رجالها العسكريين لتدريب الجنود الأحباش وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، لكى تتخذ من الأراضى الأثيوبية قاعدة حربية جوية بعيدة عن ميادين القتال فى الشرق الأوسط ، تستخدمها كمركز جوى ثانوى إذا ما تعذر عليها فى الحرب العالمية المنتظرة استخدام مطار الظهران بالمملكةالسعودية ...

وقد تخلصت الحبشة من الخطر الإيطالى الذى كان جاثماً على حدودها فى الصومال وإريتريا ، بل نجحت فى ضم الإقلم الأخير إليها ، وعلى الرغم من ذلك ظل سوء التفاهم قائماً بين روما وأديس أبابا فحمل هذا حكومة الحبشة على التودد ليوغوسلافيا وتوثيق العلاقات معها . . .



السفير الإيطالى بين يدى النجاشى، لأول مرة، بعد قطيعة دامت ١٦ سنة !

وقد نجح الأحباش كذلك فى التخلص من سيطرة بريطانيا ؛ بدعوى أن تحرير الحبشة وإجلاء إيطاليا عنها يرجع إلى كفاح بريطانيا !

وقد توثقت عرى الصداقة بين أمريكا والحبشة على أساس الثقة المتبادلة ؛ وفى سبيل هذه الصداقة أرسلت الحبشة فريقاً من أبنائها يحاربون جنباً إلى جنب مع الأمريكيين فى كوريا . . .

وفيما عدا هذه العلاقات ، لا تُعرف لاثيوبيا مصالح ذات بال مع بقية الدول ، إلا مع مصر والسودان ، وقد تطورت علاقاتها مع كلا البلدين فى الفترة الأخيرة . . .

وليس ثمة ما يلفت النظر فى علاقات مصر بأثيوبيا إلا ما اتسمت به من طابع الحذر والشك تجاه مصر ، على أثر توثُّق العلاقات بين شطرى وادى النيل ، وحاجة مصر إلى تنفيذ بعض المشروعات الخاصة بضبط مياه روافد النيل التى تجرى فى الأراضى الحبشية . . .

ولدينا من الأسباب ما يحمل على التأكيد بأنه لا مبرر لارتياب الأحباش فى نيات المصريين ، بل ليس من مصلحتهم أن تقوم العلاقات بين البلدين على أساس من الحيطة والحذر ، كما أن من مصلحة أثيوبيا أن تقوم إلى جانب حدودها دولة قوية عزيزة الجانب ، كدولة وادى النيل ، ليس لها مطامع استعمارية ، بل تحدوها الرغبة الصادقة فى التعاون مع أثيوبيا وتربطها بها أحسن علاقات المودة كدولتين مستقلتين ...

ونعود إلى العلاقات الجديدة التى تربط بين الولايات المتحدة وأثيوبيا ، فنقول : إن من مظاهر تدعيمها فى الفترة الأخيرة ، عقد

معاهدة بين البلدين ، ودعوة الإمبراطور لزيارة الأراضى الأمريكية .

أما المعاهدة فقد تم التصديق عليها فى ٧ سبتمبر ١٩٥١ ، وتشتمل على تسع عشرة مادة ، تنص أولاها على أن تكون علاقات البلدين قائمة على أساس الصداقة الأكيدة والسلام الدائم ، وأن يعملا فى سبيل تحقيق أغراض هيئة الأمم المتحدة ، وأن يتبادل الطرفان المبعوثين السياسيين بما لهم من حصانات وامتيازات وحقوق ، وأن تُنشأ فى أراضى الطرفين قنصليات يتولى شئونها مبعوثون معتمدون ، ويتمتعون بالمزايا والحصانات ، كما يعفون من أداء الضرائب والرسوم والعوائد على أساس المعاملة بالمثل .

وتنص المادة السادسة على أن تسمح حكومتا الطرفين لرعايا الدولة الأخرى بالإقامة فى أراضيها بقصد الاشتغال بالصناعة أو ممارسة التجارة أو القيام بالدراسات العلمية ؛ فضلا عن حماية هؤلاء الرعايا وتأمين سلامتهم وأموالهم ومنحهم حرية إقامة الشعائر الدينية .

وتقضى المادة الثانية عشرة بأن تمنح حكومة كل من الطرفين المتعاقدين منتجات وحاصلات الدولة الأخرى أقصى حد من الرعاية التى تتمتع بها منتجات وحاصلات أية دولة أخرى ، فلا تفرض على استيرادها قيوداً أو رسوماً جمركية أعلى ، أو تحدد مقاديرها أو قيمتها القصوى .

وتنص المادة الرابعة عشرة على أن تكون التجارة والملاحة حرة بين أراضى الطرفين ، فلا يفرض أى حظر على دخول سفينة تحمل علم الدولة المتعاقدة ميناء فى أراضى الدولة الأخرى .

وتقضى المادة الخامسة عشرة بأن يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن تلجأ المنشآت التى تملكها الحكومة أو تتولى الإشراف عليها فى الحصول على ما يلزمها من حاجيات ، إلى مؤسسات وبيوتات الصناعة فى أراضى الطرف الآخر ، مع مراعاة أسعار السوق العالمية .

وتنص المادة السادسة عشرة على أن أحكام هذه المعاهدة لا تحول دون تطبيق الإجراءات اللازمة فيمايتعلق بتنظيم صادرات وواردات الذهب والفضة ، أو المواد الإشعاعية ، أو الأسلحة والذخائر والعتاد الحربى .

كما لا تمنح هذه المعاهدة أى حق فى التدخل فى الشئون السياسية ، ولا تمتد إلى المزايا الخاصة التى سبق أن منحتها الولايات المتحدة الأمريكية لبعض أراضيها أو ممتلكاتها ، كجزيرة كوبا أو منطقة بناما .

وتقضى المادة السابعة عشرة بأن أى خلاف ينشأ عن تطبيق أحكام هذه المعاهدة أو تفسيرها ،ولا تتيسر تسويته بالطرق الدبلوماسية العادية ، يُعرض بناء على رغبة أحد الطرفين على محكمة العدل الدولية .

وتحل هذه المعاهدة محل الاتفاقية التجارية الموقعة بأديس أبابا من قبل فى ٢٧ يونيه ١٩١٧ .

وتنص المادة الأخيرة على أن تسرى هذه المعاهدة خلال عشر سنوات قابلة للتجديد ، إلا إذا أنذر أحد الطرفين الطرف الآخر برغبته فى الفسخ قبل عام من تاريخ انتهائها .

هذا وقد وجهت الحكومة الأمريكية دعوة إلى إمبراطور الحبشة لزيارة الولايات المتحدة ، فوصل هيلاسلاسى إلى نيويورك فى ٢٥ مايو

الماضى ، وأعدت له وزارة الخارجية استقبالا حافلا يليق بمكانته .

وكان بعض الصحفيين الأمريكيين قد تقدموا بأسئلة إلى السلطات الأثيوبية ، فأعدت عليهم ردوداً باللغة الإنجليزية تلاها الإمبراطور على الصحفيين عند وصوله ، ولكن أحد الصحفيين توجه إلى هيلا سلاسى بسؤالين شفويين ، أجاب جلالته من أحدهما وامتنع عن الإجابة على الآخر ؛ وكان أولهما عن استثمار رؤوس الأموال الأمريكية فى الحبشة ، أما الثانى فكان استفساراً عما إذا كانت هناك نية فى إنشاء قواعد حربية فى الأراضى الحبشية . . . . . .

وقد تضمنت إجابة الإمبراطور على السؤال الأول : أن هذا الاستثمار يعتبر فى نظره أكبر مساعدة يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة لبلاده ؛ وأضاف : إن الفرص متوفرة لهذا الاستثمار فى ميادين التعدين والمواصلات والزراعة . . .

ولما كانت الولايات المتحدة جادة فى البحث عن موارد جديدة لكثير من المعادن التى تحتاج إليها فى صناعاتها الحربية ، لا سيما معدن الأورانيوم الذى وجد بكميات كبيرة فى الكونغو البلجيكية وبعض المناطق الأفريقية الأخرى ، ولما كان معقد رجائها أن تعثر على معدن الكوبالت والبترول فى الحبشة — فإنها لا شك ترحب بهذا العرض الحبشى ، ولن تألو جهداً فى الوصول إلى أغراضها ما دام معين المال عندها لا ينضب ...

ولقد أشار الإمبراطور فى الخطبة التى ألقاها بالكونجرس الأمريكى إلى قيام بعض الشركات الأمريكية بالتنقيب عن الذهب والبحث عن

البترول فى بلاده حالياً . . . . . .

كما أن الحكومة الأثيوبية عينت خبير أمريكياً فى الشئون المالية ، فلم يلبث أن قام بتعديل نظام العملة ، فربط الدولار الحبشى بالدولار الأمريكى ، وحول بعض الصادرات التى تباع بالدولار إلى الولايات المتحدة مباشرة ، بدلا من وصولها على أيدى الوسطاء من الدول الأخرى ...

ويسود الاعتقاد بأن الإمبراطور وحاشيته قد انتهزوا فرصة زيارتهم للولايات المتحدة للتعاقد مع عدة شركات أمريكية لاستغلال الموارد الطبيعية فى الحبشة . . . . . .

ولا شك أن مسألة المواصلات لا تقل فى نظر الأمريكيين عن المعادن فى أهميتها ، بل قد تزيد ، لأنها ذات اتصال مباشر بالجهد الحربى الأمريكى ؛ وقد جاء على لسان الإمبراطور فى الخطبة التى ألقاها بالكونجرس : أن حكومة بلاده قد تعاقدت مع إحدى الشركات الأمريكية لتنظم شئون الطيران المدنى ، فى نطاق معاهدة الصداقة والتجارة المعقودة بين البلدين والتى أوردنا بعض نصوصها فيما سبق .

ولقد أصبح للحبشة بعد ضم أريتريا (المستعمرة الإيطالية السابقة) ساحل طويل على البحر الأحمر ، ولذا اتجهت النية إلى إعداد خطوط ملاحية حبشية برؤوس أموال أمريكية ، وربما ترتب على ذلك ربط ميناء مصوع بميناء إيلات الإسرائيلى ؛ ولا شك أن حكومة تل أبيب ترحب بتنفيذ هذا المشروع الذى يتيح للتجارة اليهودية فرصة الوصول إلى القارة الأفريقية ، كما يسهل لها الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعاتها ،



الثروة الحيوانية فى الحبشة، ومن أجلها تطمع إسرائيل فى حسن الصلة بالحبشة
لتمونها بما تحتاج إليه من اللحم !

دون حاجة إلى المرور بقناةالسويس ، حيث تصادفها كثير من العراقيل ...

وبهذه المناسبة عرضت بعض الصحف الأمريكية لهذا المشروع ، فنوّهت – بوحى من اليهود – بوجة التشابه بين مركز الحبشة ومركز إسرائيل ، وذكرت أن الإمبراطورية الحبشية دولة مسيحية محاصرة بالبلاد الإسلامية من كل جهة ، وأن إسرائيل تعانى مثل ذلك الوضع ؛ فلا غرو أن يتعاون كلا البلدين بإنشاء خط ملاحي يربط بين ساحليهما ويكفيهما شر القيود التى تفرض على التبادل التجارى بينهما ، فى الوقت الحاضر !

وقد تردد – فضلا عن ذلك – أن الحبشة قد تعقد مع الولايات المتحدة اتفاقية تمنحها الحبشة بمقتضاها مزايا تجعل ميناء مصوع لأمريكا شبيهاً بميناء عدن لبريطانيا على الشاطئ المقابل لأريتريا ؛غير أن المقامات المسئولة فى كلا البلدين تتجنب التعرض لهذا الموضوع ، بل تنكره تماماً ، زاعمة أنه ليس للأمريكيين أية أغراض سياسية أو حربية فى الحبشة ، وإذا كان هناك مجال للمفاوضات بين السلطات الأمريكية وإمبراطور الحبشة ، فإنه قاصر على موضوع محطة الإذاعة اللاسلكية (مارينا) التى تريد الولايات المتحدة استئجارها واستغلالها لأغراض إذاعية .

هذا هو الموضوع الذى تتحاشى دوائر الحبشة الرسمية اليوم الخوض فيه ، ولكن الشواهد تدل على أن هناك اتفاقية سرية بين البلدين ، تقضى بمنح الولايات المتحدة بعض القواعد العسكرية فى الأراضى الحبشية ؛ وقد ورد على لسان السفير الأمريكى بأديس أبابا تأكيد بهذا المعنى ، وقيل فى واشنطن إن المقصود به هو الاتفاقية الخاصة بمحطة مارينا

اللاسلكية ، ولكن المعتقد أن الحبشة تريد أن تلعب فى أفريقيا مثل الدور الذى تقوم به تركيا فى أوربا ، فتصير بذلك دعامة الخط الدفاعى الثانى للمعسكر الغربى إذا ما شبت نيران الحرب العالمية المقبلة . . .

وتدل بعض التقارير لمناسبة زيارة رئيس وزراء تركيا للولايات المتحدة ، على أن رأى العسكريين الأمريكيين متجه إلى حماية الشرق الأوسط من العدوان الروسى المرتقب ، عن طريق إنشاء مثلث دفاعى ، أركانه الباكستان وتركيا ومصر ، وربما تحول الاتجاه أخيراً إلى إحلال الحبشة محل مصر فى هذا المثلث ؛ فإن صحت هذه المشروعات فإن الاتفاق على منح الولايات المتحدة قواعد عسكرية فى الحبشة يصبح ذا أهمية حيوية بالنسبة لمصر والبلاد العربية جميعاً . . .

وقد أشار الإمبراطور فى الخطاب الذى ألقاه بالكونجرس إلى أهمية بلاده الاستراتيجية ، وإلى أن سلطان النجاشى قد امتد فى وقت من الأوقات إلى ساحلى البحر الأحمر ، حتى وصل إلى حدود مصر العليا ؛ فإذا كان لهذه الإشارة مغزى فى الوقت الراهن ، فإننا لا نستطيع تفسيرها إلا بأنها إعراب عن رغبة الإمبراطور فى ربط مصير بلاده بالمعسكر الغربى ، مع ما يستتبع ذلك من آثار وعواقب . . .

فإذا أضفنا إلى ذلك تكرار جلالته الإشارة إلى الضمان الجماعى العالمى ، وقوله إن القوى البشرية فى الحبشة أمر يجب أن يحسب حسابه ، وأن بلاده تتمتع بالاستقرار فى منطقة عز فيها الاستقرار — نقول أن تكراره لهذه الإشارة ينطوى على تحديد ضمنى لاتجاهات السياسة الحبشية الجديدة . . .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام مدى الصلة الروحية الوثيقة بين الكنيستين القبطية المصرية والحبشية ، وما طرأ عليها من وهن فى الآونة الأخيرة ، بسبب ما نشب بينهما من خلاف ؛ والأمل وطيد فى عودة المياه إلى مجاريها بين الكنيسة الأثيوبية وأمها الروحية ، كنيسة الإسكندرية .

ولكن أمراً له مغزاه حدث فى هذه الأثناء ، فقد خلا الخطاب الذى ألقاه الإمبراطور فى الكونجرس من الإشارة إلى العلاقات بين الكنيستين ، فهل لهذا الإغفال من تأويل ، إلا بأنه نزعة من جانب الأحباش نحو التحرر من سلطان الكنيسة القبطية ، أو استجابة لمحاولات تقوم بها السلطات الأمريكية لتحويل الكنيسة الحبشبة إلى المذهب البروتستانتى !

ويؤيد هذا الظن ، وبعض الظن إثم ، ما حدث فى المأدبة التى أقامها السفير الأمريكى بالحبشة تكريماً للإمبراطور ودعا إليها عشرين شخصاً من بينهم تسعة من أقطاب الكنيسة البروتستانتية !

ولكن هل ينجح الأمريكيون فيما أخفق فيه كثيرون من قبل ؟

ولقد أحيطت المفاوضات التى دارت بين الإمبراطور وحاشيته وبين ممثلى المصارف الأمريكية بسياج صفيق من الكتمان ، غير أن المقامات المطلعة تؤكد أن اتفاقاً تم بين الطرفين على منح الحبشة قرضاً بمبلغ خمسمائة مليون دولار ، أو ما يقرب من مئتى مليون جنيه ، تصرف الدفعة الأولى منه وقدرها ١٠٠ مليون من الدولارات ، فى سبتمبر المقبل .

وعهدنا بالأمريكيين أنهم لا ينفقون المال جزافاً ، وإنما يستهدفون فى كل ما يبذلون أن يحصلوا على مزايا أعظم مما يبذلونه ، فى الميدانين السياسى



فرقة من الجيش الحبشي تتأهب للحرب في كوريا ، ولم يكن
في كوريا من الأفريقيين غيرهم !

والاقتصادى ، أو أن يحصلوا على نقط ارتكاز استراتيجية يعتمد عليها حين يجد الجد وتندلع شرارة الحرب المرتقبة بين المعسكرين الشرق والغربى .

والمعتقد أن الولايات المتحدة حصلت فعلا على عدة مزايا فى مختلف الميادين ، فقد علمت الدوائر الدبلوماسية الأجنبية فى أثيوبيا أن من بين المشروعات التى درست وتم الاتفاق على تنفيذها ، إعداد ميناء مصوع بحيث يصبح ميناء حربياً ذا قيمة ، تحتله الولايات المتحدة بطبيعة الحال نظير ما قدمت من تسهيلات مالية واقتصادية ضخمة ، هذا إلى تهيئة ميناء عصب بحيث ينافس ميناءى عدن الإنجليزى وجيبوتى الفرنسى . . .

ولقد دارت مفاوضات من قبل مع بعض الألمان للقيام بتنفيذ المشروع الخاص بتوسيع ميناء عصب ، ولكننا نستبعد الآن أن يقوم الألمان بهذا المشروع ، بعد أن حصل الإمبراطور على هذا القرض السخى !

وتدل الشواهد على أن من بين المشروعات التى تعكف على دراستها البعثة الأمريكية فى الحبشة ، مشروع إنشاء نواة لأسطول حربى وتجارى ؛ وقد بدأت تستأجر بعض البواخر وترفع علمها عليها ، كما أنشأت مدرسة بحرية فى ميناء مصوع قد تبدأ الدراسة فيها خلال فصل الخريف المقبل ، وسيعهد إلى عدد من اليونانيين تدريب الطلبة الأحباش وإعدادهم لقيادة الأسطول.

وقصارى القول أن أثيوبيا مقبلة على عهد من التقدم والرخاء ، لما فيها من موارد طبيعية غزيرة ، أكثرها خطراً وأهمية ، اليورانيوم والكوبالت ، كما سبق أن قدمنا ، والذهب والبترول اللذان تدل أعمال التنقيب على وجودهما بكميات وفيرة فى الأراضى الأثيوبية ، ثم مشروعات بحيرة تسانا ...

مباحث حول بحيرة تسانا

من بحيرة تسانا العميقة فى وسط الحبشة ، ينبع نهر «آباى» ، وينحدر نحو الجنوب الشرقى ، ثم يدور حول الجبال ليتخذ اتجاهاً جديداً نحو الشمال الغربى ، حيث يسمى «النيل الأزرق» ثم يمضى فى مجراه العميق وسط الجبال حتى يصب فى النيل الأبيض عند الخرطوم ؛ ومنه يأتى الفيضان الذى يفد على بلادنا بالخير والبركة فى منتصف الصيف من كل عام . . .

وقد أدركت بريطانيا منذ احتلت مصر والسودان ، ما للنيل الأزرق وبحيرة تسانا من أهمية فى بلادنا ، لا من حيث أثره الزراعى فى الجزء الواقع شمال الخرطوم من وادى النيل فحسب ؛ بل من حيث أثره فى زراعة القطن التى تغذى مصانع لانكشير ؛ ولعلها لاحظت إلى جانب هذه الأهمية ، ما يمكن أن يكون لهذا النهر من أثر فى إمكان اتخاذه وسيلة فى بعض الظروف السياسية للضغط على مصر والسودان ، باعتباره شريان الحياة فى البلاد . . .

وفى ظروف مختلفة ، منذ سنة ١٩١٩ إلى اليوم ، تردد اسم بحيرة تسانا عدة مرات على ألسنة السياسيين فى مصر وبريطانيا ، وعلى أفواه الهاتفين فى المظاهرات السياسية لبعض المناسبات فى العواصم المصرية . . .

فلما كانت سنة ١٩٥٢ ورأت بريطانيا نفسها فى وضع سياسى بالنسبة لمصر يفرض عليها أن تقوم ببعض المناورات ، بدأت تذكر بحيرة تسانا مرة أخرى ؛ وكانت مصر فى ذلك الوقت ، تقوم بمباحثات مع حكومة النجاشى فى شئون تتصل بمياه النيل الأزرق والبحيرة التى ينبع منها ؛ ولأمر ما ، لم تجد الحكومة المصرية يومئذ من حكومة النجاشى استجابة أو إقبالا على هذه المباحثات ؛ وفى ذلك الوقت ، تقدمت الحكومة البريطانية إلى مصر تطلب أن يكون لها رأى فى هذه المباحثات الجارية بين مصر والحبشة ؛ وكان طلباً غريباً حمل مصر على أن تسأل بريطانيا : وماذا يعنيك من أمر بحيرة تسانا والنيل الأزرق ، ومن المباحث التى تدور حولهما بين الحكومتين الشقيقتين ؟ فكان جواب بريطانيا أنها تريد أن تشترك فى هذه المباحثات لمصلحة السودان . وكان جواباً أبعد فى الغرابة من الطلب نفسه ، فإن السودان لأهله لا لبريطانيا ، ومصلحته هى مصلحة مصر الشقيقة نفسها ؛ فإن جاز لأحد أن يتحدث باسم السودان غير أهله فهو مصر لا بريطانيا ، التى تفرض نفسها وصياً فضولياً فيما لا يعنيها من شئون الأمم الأخرى . . .

وقد وقفت تلك المباحثات يومئذ بين مصر والحبشة حول هذا الموضوع فلم تنته إلى نتيجة ؛ ثم دخل الموضوع فى طور جديد ؛ إذ بدأت الولايات المتحدة — عن طريق مشروع المساعدات الفنية « النقطة الرابعة » — تحوم حول بحيرة تسانا ، لتبدأ دراسة من نوع معين ، تتصل بطبيعة الأرض فى تلك المنطقة ، وما يمكن أن يقام فيها من

مشروعات ؛ ووصلت أول بعثة لهذا الغرض من مكتب إصلاح الأراضى بالولايات المتحدة ، إلى أديس أبابا ، فى ٦ أبريل سنة ١٩٥٢ ، ولم تكن مباحث هذه البعثة قاصرة على نوع من المشروعات دون غيره فى حوض النيل الأزرق وبحيرة تسانا ، بل شملت أنواعاً عدة ، من حيث طبيعة الأرض ، ومدى صلاحيتها للتوسع الزراعى ، وقوة تدفق المياه ، وإمكان توليد القوى الكهربية ، ووسائل إنشاء مجال صناعى أمريكى تُستخدم فيه هذه القوى الكهربية .

وقد قدمت هذه البعثة تقريرها فى أصلى وملحق ، فى أغسطس سنة ١٩٥٢ ، وبدأت « النقطة الرابعة » بتنفيذ بعض ما تضمنه ذلك التقرير من توصيات . . .

وكان من بين ما قررته البعثة ، ضرورة « عمل دراسات شاملة لمشروعات نهر النيل » وإعداد الاتفاقيات اللازمة لتوزيع مياهه بين مختلف البلاد التى يمر بها ؛ كما كان من بين الدراسات ، مشروع لإنشاء خزانات على روافد النيل الأزرق الواقعة بين بحيرة تسانا وحدود السودان ، للاستفادة بمياهها فى القطر الحبشى نفسه . . .

ومنذ ذلك التاريخ ، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية — ومن ورائها بريطانيا — تتحدث عن ضرورة « عمل دراسات كاملة لكافة مشروعات النيل » وهى دراسة تستغرق من خمس إلى عشر سنوات قبل محاولة تنفيذ أى مشروع من مشروعات الرى فى مصر والسودان ؛ وهى نغمة جديدة قد انكشفت بواعثها واتضحت أهدافها الاستعمارية البعيدة . . .

واليوم إذ ترد الأنباء من غرب الأطلسى بما كان لزيارة الإمبراطور هيلاسلاسى للولايات المتحدة من آثار تتحدث عنها الصحف الأمريكية وتسترسل فى الحديث بسبيلها عن المساعدات الضخمة التى تقدمها الولايات المتحدة للحبشة ، ومنها منحة ٢٠٠ مليون جنيه — يمكن أن يتساءل الأحرار فى كل قطر عربى أو أفريقى بقلق : ما ثمن كل هذه المساعدات لبلاد مثل الحبشة فى وضعها الراهن ؟

وقد يكون جواب هذا السؤال قريباً جداً ، ولكنه — على أى حال — غير الجواب الذى تنتظره بريطانيا والولايات المتحدة ؛ لأن الوعى الإنسانى الجديد فى العالم كله ، يأبى منذ اليوم أن تباع المرافق الوطنية العامة إلى الأجانب بمال !

الكتاب التالى

من مجموعة اخترنا لك

البترول والسياسة العربية

يصدر فى

أول سبتمبر ١٩٥٤

الطابع والناشر

دار المعارف بمصر